

أحداث صادمة .. لن تلتقط معها أنفاسك!

رواية

حزام بن راشد

الطبعة الثالثة

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

ينشر قصتي..

على الرغم من نقص المعلومات التي كانت بحوزته، بسبب

تداخل معلومات هويتي الرسمية..

"المزوّرة من قِبل الذين تناوبوا على اختطافي"

حيثُ كان الرجل متطوّعاً كغيره من المحامين والناشطين بحثاً عن قصص جديدة تصنعُ الفارق في مسيرتهم..

سواء مسيرتهم الإنسانية، أو حتى العملية ربما..

أعطاني مشكوراً رقم هاتفه الخاص.. فحفظتهُ عن ظهر قلب..

فقد كان هو الأمل الوحيد أمامي، وسط كل هذا الإحباط..

تمَّ نقلي بعد ذلك إلى مكان آخر، يضمّ الكثيرين من الأطفال..

كنّا حوالي خمسةً وعشرينَ طفلاً..

كانت أعمارنا في اعتقادي تتراوح ما بين (10 إلى

أنا بخير.. والدليل أنّني ما زلتُ أكتبُ..

يكفيني أنّني لستُ مثلهم.. ولن أكون..

تلك النومة الأخيرة التي تنتظر الجميع..

سوف أخوضها مرتاحاً من دون كوابيس!

إهداء مكرّر..

إلى كل طفل متضرّر على كوكب هذه الأرض..

وبالأخصّ.. إلى الأطفال الذين اختفوا فجأة!

الكتابة بالنسبة لي..

بحث ودخول في المتاهات..

ولهذا أؤمن بأنّها متعة متعبة..

سبعُ سنوات استنزفتُها من فترة شبابي

التي تعتبر الأجمل في حياة كل شاب

في كتابة كلمات أراها بسيطة.. وترونها مؤثرة..

أقدّم لكم اليوم.. رواية لم أتوقع مواصلة كتابتها!

ولكنّها الأقدار.. الحجّة التي لا تجعلنا نواجهُ نتائج قراراتنا..

الجزء الثاني من الطفلة إيمان..

كان قراري الذي لا أحبّه..

أتمنى أن تلامسكم.. ولا تتعبكم كما أتعبتني..

حزام بن راشد

"رسالة كان لا بدَّ من تخيّلها ومن ثم نشرها"

لا أعلم كيف أشكركم..

فالتفاعل الكبير وتعاطفكم مع قصتي.. أمرٌ لم نكن لنتوقعه..

شعور لا يوصف أن تجدَ من يبكي على قصتكَ، أناس لا تعرفهم

أكثر من بكائكَ أنت.. بكاؤكَ الذي قد يخذلكَ وينقطع مجبراً!

ردود أفعال القرّاء المؤثرة منذ نشر الأحداث بأسلوب روائي..

هي ما سمحت للمحامي باستكمال نشر قصتي..

أشكرُ مَن أوجدَ لي نعمة هذه الدعوات نحو السماء..

الكاتب الذي لم ألتقِ به حتى الآن!

حزام.. أشكركَ..

ليس فقط على قلمكَ الذي جعلني أتأثّر كما لو أنني

قارئة بينكم..

بل على حفظكَ للأمانة وجرأتكَ في نقلها دونَ جلب للمشاكل..

أعدكَ وعداً لا طبيعة محددة له..

بأنكَ لن تغيب عن دعواتي.. صباح مساء.. فوق الأرض أو تحتها.

"إيمان.. التي كانت طفلة"

أحياناً.. النهاية هي البداية!

تمّ حبسي بسبب جريمة قتل لم أرتكبها كما تعلمون..

وبعد أسبوعين من حبسي.. والبكاء المتواصل الذي تعودتُ عليه..

وانتظار المصير المجهول بعد جريمة قتل والد يحيى الحقير والتي لم أستوعب تفاصيلها حتى هذه اللحظة..

وجدتُ نفسي أركض بلا توقف.. وأتنقلُ بلا دراية!

هل أنا أحلم؟.. أم أنّني في كامل وعيي؟!.. ربما كابوس..

وبعد فترة من الرعب.. وجدتُ نفسي أصارع بحثاً عن هواء!

كانت رائحة التراب مسيطرة على المكان، لا أكاد أشعر بالهواء..

أنفاسٌ متقاربة.. روائحُ لا تُطاق.. الكلّ ممنوعون من الخروج..

بقيتُ على هذا الحال برفقة مجموعة من البشر لمدة خمسة أيام!

سجن؟!

لا.. إنّهُ كهف من كهوف منطقة في اليمن، لا أعلم ما اسمها؟..

نعم.. لقد هربتُ من السجن.. لكن بلا تخطيط..

بل أقصد أنّه تمّ تهريبي!.. فأنا أبسط كثيراً من أن أهرب..

صدمة لم يتوقعها أحدكم أليس كذلك؟..

أعلمُ أنّكم طوال الفترة الماضية كنتم تعتقدون أنّني مازلتُ في السجن.. الحقيقة لقد تمنيتُ ذلك!

أحياناً.. الحياة داخل السجن، أكثر أماناً من الحياة خارجه!!

بعد أسبوعين من دخولي الحبس في "اليمن"..

وبعد المرور بالعديد من الإجراءات الروتينية والإدارية..

التقيتُ خلالها بالمحامي الطيب، الذي وعدني بأن

ينشر قصتي..

على الرغم من نقص المعلومات التي كانت بحوزته، بسبب

تداخل معلومات هويتي الرسمية..

"المزوّرة من قِبل الذين تناوبوا على اختطافي"

حيثُ كان الرجل متطوّعاً كغيره من المحامين والناشطين بحثاً عن قصص جديدة تصنعُ الفارق في مسيرتهم..

سواء مسيرتهم الإنسانية، أو حتى العملية ربما..

أعطاني مشكوراً رقم هاتفه الخاص.. فحفظتهُ عن ظهر قلب..

فقد كان هو الأمل الوحيد أمامي، وسط كل هذا الإحباط..

تمَّ نقلي بعد ذلك إلى مكان آخر، يضمّ الكثيرين من الأطفال..

كنّا حوالي خمسةً وعشرينَ طفلاً..

كانت أعمارنا فى اعتقادي تتراوح ما بين (10 إلى

16)عاماً

أغلبُنا ذكور.. لم تكن هناك سوى ثلاثُ بنات وأنا الرابعة..

كنتُ أتمنى أن أجد يحيى بينهم.. لكنّه للأسف لم يكن موجوداً..

ولم أكن أعلم ما هو المصير الذي سوفَ يواجههُ بعيداً عني..

لم أبقَ مع مجموعة الأطفال سوى ثلاثة أيام فقط..

حتى حصلَ مالم أتوقعه!

في الصباح الباكر، وبينما كنّا غارقين في نومنا..

استيقظنا فزعين على صوت فتح الباب الذي أكلهُ الصدأ..

تجمّعنا كأطفال في زاوية واحدة، كفروخ الدجاج البائسة..

فالخوف وحده ما يجعلنا نقترب ممّن يجمعنا معهم المصير نفسهُ

بحثاً عن بعض الأمان غير الموجود أصلاً..

كان الذعر يتشكل على وجه كلٍّ منّا بطريقة وبأخرى..

طلبوا منّا الخروج فوراً..

وكأنّي سمعتُ من حديث أحد الحرس، أنّهم يريدون أن ينقلوننا

إلى مقرّ يختص بأعمارنا كأطفال..

وبالفعل ركبنا في سيارة قديمة جداً.. كتلة حديدية تكاد تتساقط..

لا تكييفَ فيها ولا أيّة مقاعد.. كنّا نجلس على أرضيّتها الصدئة..

ثم تحرّكنا إلى جهة لا نعلمها.. وتتقدمنا سيارة أمن للحماية..

كنتُ أنظر إلى وجوه الأطفال كعادتي..

في وجه كل طفل يبدو أنَّ هناك تفاصيلَ مؤلمة، تستحق أن تُسرد لها رواية خاصة.. فالحزن الذي يتلاءم مع ملامحهم الشاحبة

يُخبرني ذلك بسهولة.. والحقيقة كدتُ أنسى أنني

أتعسُهم..

لم نكمل نصف الساعة في مشوارنا، حتى وجدنا أنفسنا نسير على

طريق هادئ.. لا تحيط به ضجة المدينة ولا شيءُ من زحامها..

لم يكن فيه مزعجُ سوى صوت السيارة المهترئة التي تقلّنا..

ومن دون مقدمات.. ولا أيّة بوادر تدلّ على قدوم عاصفة..

كسرَ هذا الهدوء المضطرب صوتُ إطلاق نار!

نهضَ جميع الأطفال وأنا معهم؛ كي ننظر ما الذي يحدث؟..

وجدنا ثلاثَ سيارات أحاطت بنا، ثم بدؤوا بإطلاق النار في الهواء

كي يُجبروا السائق، ومن معه، وكذلك حرس السيارة الأخرى المرافقة لنا على التوقف..

ثمانية رجال ملثّمين.. طلبوا منهم النزول وإلقاء

الأسلحة فوراً..

وبينما بدأ الحرس بالنزول مستسلمين للكمين، ومنفّذين أوامرهم..

باغتَهم أحد الحرس مقاوماً بإطلاق النار.. فأصابَ أحدهم..

فردَّ عليهم الرجال الملثمين بقتلهم جميعاً دون استثناء!

هذا المشهد جعلنا نخفضُ رؤوسنا مرعوبين..

بكيْنا جميعاً بشكل هستيري.. لم نصدق ما شاهدناه في الخارج!..

كان أحد الأطفال يُدعى قاسم.. "أكبرنا جسداً وأوضحُنا ملامحَ"

طلبَ منّا الهدوء، ومواصلة الانخفاض، وعدم التحرك..

لحظات، وبدأنا نسمع محاولات لكسر قفل باب السيارة..

نجحوا من ذلك بكل سهولة.. ثم طلبوا منّا النزول

بسرعة والصعود إلى إحدى سياراتهم!

لم يتركوا لنا فرصة التفكير بالقرار.. نزلنا جميعاً كالتائهين..

أحاطوا بنا بأسلحتهم.. ونظرات الشر نحونا طاغية الوضوح..

لم تُخفني أسلحتهم كما أخافتني أعينهم المرعبة جداً وهي تمشّطنا..

ركبنا في صندوق خلفي لسيارة نقل قوية.. كان مغطّى بمظلة..

وفي لمح البصر، غافلهم أحد الأطفال الذكور وأختارَ الهرب!

لم يلحقوا به أبداً.. بل تركوه كما أراد..

وبينما كنّا نشاهدهُ وهو يركض كالأرنب ومن خلفه الغبار..

سقط!

أطلقَ أحدهم عليه النار، وأرداه قتيلاً بكل سهولة!

ثم أجهزَ أحدهم على صديقهم المصاب إصابة خطرة

جرّاء مباغتة أحد الحرس لهم في البداية.. بطلقتين متتاليتين..

حتى لا يكون عبئاً ثقيلاً عليهم في تنقّلاتهم..

لم نصدّق كيف قتلوا طفلاً بكل هذه السهولة والبرود!..

قُذفَ الرعب في قلوبنا الهشّة.. وأصابتنا الرجفة القوية..

لقد وصلت إلينا رسالتهم المقصودة بكل وضوح منذ البداية..

مَن يفكر بالهروب.. سوف يغادرنا نهائياً نحو السماء!

وانطلقوا بنا بعد ذلك بسرعة جنونية بواسطة مركباتهم..

حتى وصلنا إلى هذا الكهف الذي أخبرتُكم عنه..

ووجدنا في داخله مَن كان ينتظرنا..

حارس مسلّح.. وثلاثة أطفال.. كان من بينهم طفلة!

سوف أخبركم جملة الآن، قبل مواصلة سرد

التفاصيل..

رجاءً لا تنسوها طوال فترة الأحداث..

وأتمنّى ألّا تغضبكم مني.. هذه الجملة هي:

"كم كنتُ أتمنى الموت في أقرب فرصة؛ حتى لا أستقبل المزيد

من المعاناة والعذاب في قلبي الصغير.. وذاكرتي المنهكة جداً"

جملة محبطة أليس كذلك؟

قد ترونهُ انهزاماً وعجزاً منّي.. لكن لا تنسوا دائماً..

أنّكم قرأتم الأحداث فقط.. ولم تعيشوها بأنفسكم..

والأهمّ.. أتمنّى أنكم لم تنسوا بعد.. أنّني مجرد طفلة بائسة..

أكملتْ عامها الرابع عشر، وأبحرتْ في عامها الثاني منذ اختطافها في موسم 2005، عندما كانت ابنة الثلاثةَ عشرَ عاماً فقط..

يمرّ الوقت مثل سرعة الضوء.. ولا نشعرُ بسبب

تتابع الأحداث..

خمسة أيام لم نخرج خلالها من الكهف!

إلا لقضاء الحاجة، ثم العودة مباشرة إلى نفس المكان..

وكان يرافقنا أثناء ذلك، أحدُ أفراد المختطفين المرعبين جداً..

لم نعلم ماذا يريدون منّا؟.. قسمات وجوههم كما لو أنّها خُلقت من الصخور الصلبة الكبيرة نفسها التي كانت تتناثر من حولنا..

سمعتُ أحدهم يحدّث صديقه، وهم ينتظرون فراغنا من الخلاء..

بأنّنا أفضل بكثير من الأطفال السابقين الذين كانوا برفقتهم!

والأهمّ أنّ حصولهم علينا، هو أفضل انتقام وأقوى رسالة موجهة للجهات الأمنية اليمنية التي أفسدتْ عليهم حملة تهريب سابقة جعلتْهم يخسرون مبلغاً مالياً هامّاً كانوا بحاجته..

مرعبٌ ما يتناقلونه من أحاديث..

ما ذنبُ الأطفال أمام غاياتهم وانتقاماتهم؟

لا أعلم ماذا كان مصيرهم؟ ولا المصير الذي ينتظرنا من بعدهم؟

كنتُ أجلس برفقة الفتيات الصغيرات..

وكانت تجلس معنا تلك الطفلة التي وجدناها عند وصولنا..

أمّا الذكور فكانوا برفقة بعضهم.. وجميعنا بالقرب من بعضنا..

لم نكن نتحدّث كثيراً.. فالجوع الذي بدأ يتمكن من بطوننا

مع اليوم الثاني كان سيد الموقف..

وجبة واحدة هي التي تُقدم إلينا في اليوم الواحد..

كانت عبارة عن خبز يصنعهُ لنا أحدهم.. يُقدّم مع الماء فقط..

للأسف كانت رائحة المرق واللحم تقتحم فتحات أنوفنا كل يوم..

ولكنّها لا تلامس ألسنتنا.. كانت الوجبة لهم

وحدهم..

لا رحمة لديهم، ولا مراعاة لخواطر الأطفال الجالسين بالقرب منهم وقفَ الطفل قاسم.. الذي أخبرتُكم عنه..

كان ما يميّزه عنّا أنّه أكبرنا وأطولنا وأقوانا جسداً..

حنطيّ البشرة.. هزيل الملامح.. كان الغبار يكسو شعره المجعد..

تحدّث غاضباً بعد أن ضقنا صبراً بأفعالهم:

- اليوم الثالث وأيضاً خبز!.. لماذا لا تقدمون لنا اللحم مثلكم؟

وقفَ أحدهم وتوجّه إليه بسرعة، وضربه ضرباً مبرحاً!

حتى أصبح يرجوهُ أن يتوقف.. وكنّا ننظر مرعوبين وعاجزين عن التدخل.. وبعد أن فقدَ قواه.. توقفَ الرجل ثم قال له:

- ما رأيك الآن بهذا التغيير؟.. أصبح لديكَ خبز وضرب.

ثم نظرَ إلينا وهدّدنا جميعاً بأنّ مَن يتجاوز حدّهُ،

ويتجرّأ على الاعتراض.. سوف يلقى مصير قاسم وأكثر..

وصرخَ في وجوهنا بعدها طالباً منّا تناول الخبز فوراً..

فقمنا بذلك خائفين، كما لو أنّه تأدية واجب..

استجمعَ بعد ذلك قاسم بعضاً من قواه..

والتقط خبزتهُ وتناولها كيلا يقتله الجوع عند هبوط الليل..

في اليوم الرابع بدأنا نتأقلم قليلاً مع الوضع..

كنّا نتحدث ونبتسم كفتيات مع بعضنا..

وكنَّ لا يفهمن معظم حديثي؛ بسبب التشوه الذي في لساني..

الذي تسببتْ به تلك الحقيرة سلوى.. جميعكم يعرفُها..

وأنا موقنة أنّ جميعكم يكرهها.. فهي سبب الدمار الذي أعيشه..

ما يهمّ أنني لاحظتُ بأنّ الطفلة التي وجدناها في

الكهف عند

وصولنا متعبة وتتألم دائماً.. وتعاني قليلاً عندما تتحرك..

لكنّ الابتسامة الجميلة على الرغم من ذلك لا تفارق محيّاها..

وكذلك حب المشاكسة مع الفتيات بين الحين والآخر..

كانت جميلة.. ناعمة الشعر.. تضع الحجاب بشكل عفوي..

قصيرة.. تحمل ملامح طفولية حقيقية سهلة القبول..

عرّفتنا بنفسها.. كان اسمها شريفة.. وعمرها خمسةَ عشرَ عاماً..

نظرت إليّ مبتسمة، ثم سألتني:

- من أيّة محافظة أنتِ؟

الحقيقة لا أحبّ هذا السؤال.. لكنّني أتعامل معه أحياناً بطرق ملتوية.. فأجبُتها مبتسمة وأنا أشيرُ بيدي

نحو فمي:

- لا يمكنني الكلام.. لكنّني من مكان بعيد.

استغربتْ من إجابتي! ولم تتوقف عندها.. والأهم: فهمتْها..

فبادرتُها بسؤال وأنا أشرح بيديَّ كي تفهم ما لا يوضّحه لساني:

- لماذا تتألمين دائماً.. هل تريدين مساعدة؟

- لا شكراً. .يبدو أنّها آلام بداية الحمل.

لم أستوعب إجابتها!

حمل؟!.. ما الذي تقولهُ هذه الطفلة النحيلة؟

تدخلتْ فتاة أخرى يقارب عمرها عمر شريفة، وهي تقول ساخرة:

- سوف تصبحين أمّاً.. أخبرينا ماذا تريدين تسمية طفلكِ؟

- لا أعلم.. أيّ اسم.. الحقيقة لا أريده..ما يهمني أن أخرج من هذا المكان المختنق.. وأن أعود إلى أمي فقط.

سألتُها والدهشة مازالت تدغدغ وجهي:

- حمل!.. كيف ذلك؟ أنتِ صغيرة.

- تسألين كيف؟ بالزواج طبعاً ليس من الهواء.

- أقصد كيف؟ أنتِ صغيرة جداً؟

- لستُ صغيرة في نظر والدي الذي أرغمني على ذلك.

أرغمها!

أشرتُ لها بيدي أطالبها أن تخبرني عن كيفية إرغامها..

نظرت إليّ نظرة امتعاض، وكأنّها لا ترغب في استرجاع ذلك..

أشارت بيدها نحو رجل خمسيني شعرهُ أبيض بعض الشيء..

منفوخ الخد، مأخوذ بنبتة القات المخدّرة.. كعادتهم الدائمة جميعاً..

لديهِ لحية كثيفة مستفزة.. كان أكبر الرجال سنّاً بينَ الذين اختطفونا ويحرسونُ الكهف الذي يحتوينا.. ثم

قالت على مضض:

- هذا هو قائد كل الأفراد.. يدعى أبا معاوية.. يقوم بجمع الأطفال مع رجاله ثم يبيعهم.. هو زوجي.. يأخذني معه في كل رحلة، ولا يتركني في البيت وحدي.

- ولماذا يأخذكِ معه؟ (كررتُ السؤال مرتين حتى فهمتْني)

- لأنّه يخشى أن يسترجعني والدي الذي يعمل تحت إدارته..

للأسف أبي مدينٌ له بقيمة ممنوعات فقدَها وفشلَ في تهريبها، فخيَّره بين قتلنا جميعاً أو سداد الدين.. ثم أقترحَ أن يأخذني زوجة كجزء من سداد المبلغ الكبير، وكضمان لحفظ حياة أسرتنا.. فوافقَ والدي مجبراً.

شعرتُ بالكثير من الرعب.. وكذلك ببعض اللوعة..

تمنيتُ لو أنّني لم أسألها.. ما هذا الإجرام الذي لا حدود له؟..

مسكينة جداً.. كيف لها أن تعيش هذه التجربة في

هذا العمر؟

أن تتزوج وتحمل وهي طفلة(1)

مرّت الساعات حتى خلدنا إلى النوم..

وبعد أن غرقتُ في النوم، فتحتُ عينيّ حيث شعرتُ بمرور أحدهم بيننا.. لقد كان أبا معاوية.. قائد العصابة.. زوج الطفلة شريفة..

سحبَها من بيننا.. وأخذها معه إلى موضع نومه في الخارج!

وبعد ساعة تقريباً أعادَها وهو يلعنها.. كانت تبكي بقوة وتنتفض!!

رماها بيننا دون مراعاة لحملها.. مما تسبّبَ في استيقاظ معظم الأطفال.. اقتربْنا نحن الفتيات منها..

كنتُ أقربهنّ.. فحضنتُها في صدري، وأنا خائفة ممّا شاهدتُ..

لا أعلم ربما كنتُ أريد أن أخفف من رعبي باحتضان رعبها..

فالرعب بمشاركة الجماعة رحمة إن صحّ التعبير..

كانت تبكي وتتألم.. فحاولنا تهدئتها حتى نجحنا بعد جهد في ذلك..

كان العرق يتصبّب من وجهها.. وكنّا نمسحه بثيابنا المتسخة..

استمرت في الأنين بشكل تدريجي.. حتى هدأتْ ثم نامت مجهدة..

ما الذي فعله بها هذا اللعين؟!

أذكر تلك الليلة جيداً.. لم يعدْ إليّ النوم إلا قرابة الفجر..

استيقظنا بعد ذلك مجبرين..

تنفيذاً لأوامرهم عند اكتمال شروق الشمس..

كانوا يصرخون علينا، ونحنُ تنهشنا الفاجعة وكأنّها القيامة..

لفتَ أنظارنا وجودُ سيارتين تنتظراننا.. كنّا نشاهدهما ونحن داخل الكهف.. نزلَ أصحابها للاختيار من بيننا!

وقبل أن يبدؤوا في الاختيار.. تدخّل أبو معاوية، وقامَ بعزلي

بسرعة أنا والفتيات، بالإضافة إلى قاسم وطفلين آخرين..

ثم قال لهم:

- اختاروا من المتبقّين.

غضبَ أحدهم ويبدو قائدهم.. لم يعجبه هذا التصرف حيث قال:

- أريدُ الطفل القوي الذي يقف خلف البنات..

- هؤلاء أحتاجُهم..

- هذا ليس عدلاً.. تعلم أنَّ لدينا أعمالاً شاقة..

- وتعلم أنّ بيننا اتفاق على التسليم مباشرة من دون نقاش.

احتدَّ الجدال قليلاً.. وعلا الصراخ، وشاهدنا بعضاً من القات المعجون في داخل أفواههم قد بدأ بالتطاير..

حتى قاطعهم أحدهم كي يهدؤوا وهو يقول:

- يا أخ، أخبرناكَ أننا نحتاج إلى طفلة على الأقل.. لن نأخذ ذكوراً فقط.. دعنْا على الأقل نأخذ تلك

الطفلة النائمة.

طفلة نائمة!

جميعنا التفتنا إلى زاوية نومنا.. كانت الطفلة شريفة!

لقد استيقظنا مفجوعين من صراخ الرجال علينا..

وتحرّكنا من أماكننا دون أن نلاحظ استلقاء شريفة المتعبة..

صرخَ عليها زوجها القائد الأحمق طالباً منها القدوم..

لم تجبْهُ!..

اندفعَ نحوها غاضباً وهو يهددها.. ثم سحبها من يدها بقوة..

كانت تتدلى من يده كما لو أنّها خرقة بالية أتعبَها التدنيس بدنسهم..

تركها وهو يلعنُها ويلعن والدها، ويلعن من تحملهُ في بطنها!

ركضنا نحوها أنا والبنات من دون شعور..

فأعادنا ذلك الوغد بقدمهِ بعد أن ركلنا وهو يُرغي ويزبد..

وضعَ على وجهها قطعة قماش كان يربطها على رأسه..

الطفلة شريفة ماتت(2).. وكذلك مَن تحمله في بطنها الصغير!!

تلاشت حدة النقاش بعد هذه الفاجعة غير المتوقعة أبداً..

فتمَّ تقاسم الأطفال المتبقين بسرعة، ومن دون أيّ جدال..

وسلّموا المبالغ للحقير أبي معاوية.. ثم غادروا بكل بساطة!

انخرطنا في البكاء.. وكان الأطفال الذكور متأثرين.. إلّا قاسم..

كان ينظر إلى كل ما يحدث وهو صامت..

يبدو أنّه يخشى من تكرار ذلك الضرب المبرح الذي تلقّاه وحده!

قرر مختطفونا الرحيل فجأة من الكهف..

أركبونا في حوض سيارتهم الكبيرة المغطى..

لا أعلم إلى أين نسير هذه المرة؟.. ولا أعلم ما الذي ينتظرني؟

طوال الطريق كنتُ أبكي وأتألم على نهاية شريفة..

وكان الأطفال في حالة صمت وحزن لا يوصفان..

وقعَ الموت على الكبار وقعاً مؤلماً على النفس البشرية..

فكيف يكون وقعهُ بكل بشاعته على الصغار الذين لم يفهموا معنى لذة الحياة بعد؟.. حتماً هو وقعٌ سيىء لن يمر بسهولة، بل سيبقى أثرهُ مرافقاً طويلاً لهم.

بعد رحلة طويلة ومتعبة.. توقفنا فيها مرة واحدة فقط من أجل قضاء الحاجة وتناول الطعام الذي يصنعونهُ من العجين..

وصلنا إلى أطراف إحدى المدن.. لم ندخل إليها..

أخبرنا قاسم بعد أن شاهدَ الطرق.. أنّنا وصلنا

بالقرب من مأرب(3) لأول مرة أسمع بها في حياتي القصيرة..

واصلت السيارة التقدم حتى توقفت عند بناية قديمة فيها مستودع صُنعَ من حديد.. شكلهُ مستفزّ.. كما لو أنّه ورشة صناعة تقريباً..

طلبوا منّا النزول وأدخلونا جميعاً، ثم أغلقوا الباب بالسلاسل وتحدّثَ قائدهم أبو معاوية إلينا بكل حدة وصرامة:

- مَن يتجاوز هذا الباب؛ سوف نقتلهُ ونرميه إلى الكلاب..سوف تجلسون في غرفة واحدة جميعاً حتى يبدأ العمل.

عمل!

ماذا يقول هذا الرجل المرعب؟

أعادَ لي الذاكرة إلى تلك الأحداث التي مررتُ بها في مدينة جدة وفي أفغانستان!.. هل سوف نعمل كأطفال في التسوّل؟

لا يمكنني تقبّل هذا العذاب النفسي مرة أخرى..

لا بدّ من الهرب.. ولكن كيف؟ والسؤال الأهم..

إلى أين؟

كانت الغرفة كبيرة ومحكمة الإغلاق.. مصنوعة من ألمنيوم ربما..

ويتّضح أنّها محاطة بعازل إسفنجي قوي جداً يكاد يعزل الصوت!

ولكنّها متسخة.. والملفت أنّها مليئة بعجلات السيارات الجديدة..

فرائحة المطاط تفوح في المكان.. وكذلك رائحة المعقمات!

ولكنّها كانت غرفة هادئة بشكل واضح.. ربما بسبب العازل..

وزّع علينا أحد الرجال قطعاً من الأقمشة القديمة والخفيفة جداً..

ثم قالَ والقات يملأ فاهُ:

- هذا فراشكم الذي سوف تنامون عليه.. حافظوا عليه.

ثم خرجَ وأغلق الباب بقوة، ووضع عليه القفل!

لم استغربْ حقيقةً.. فقد نمتُ طوال الأيام الماضية على الصخور يبدو أنّني في حال أحسن وأفضل هذه المرة..

فملمس الأرضية أكثر طراوة من أرضية الكهف بالتأكيد..

اختارَ كل طفل مكاناً مناسباً له.. ثم خلدنا إلى النوم مباشرة بعد رحلة مرهقة ومواقف مؤلمة شرخت نفسيّاتنا من الداخل..

بقينا في هذه الغرفة على هذا الحال قرابة الأسبوعين!

الغريب الذي لم نتمكن من استيعابه كأطفال تعوّدوا على تجرّع القهر.. أنّهُم طوال تلك الفترة.. لم يبخلوا علينا بالطعام!!

كانت الخضروات متوفرة بشكل مستمر..

ووجبة الغداء كانت أساسية.. وتحتوي على الدجاج والرز..

كانت أجمل أسبوعين لي في فترة معاناتي.. أحسستُ فيها بالعافية..

ولكن شعرتُ كما لو أنّه عقاب!

كانوا يجبروننا على تناول الطعام كاملاً، ومن يبقِ بعضه يُعاقب!

هل هذا هو العمل الذي أخبرنا أنّه ينتظرنا؟ تناول الطعام!

أشعرني ذلك والأطفال بالتخمة.. لكن هذا التصرف منهم كان يُبعد عنّا مشاغبات الجوع التي تتحرش ببطوننا آخر الليل..

تعوّدنا على هذا النعيم من دون خروج ولا حركة ولا طلبات..

حتى أتى ذلك الصباح..

والذي دخلَ فيه الرجال علينا، وبرفقتهم شخص سمين!

طلبوا منّا النهوض.. نظروا إلينا نظرة تفحّص..

كان الرجل ينظر إلى داخل أفواهنا.. وإلى أعيننا ويفحص قوة عظامنا.. والعديد من التصرفات الغريبة.. ثم سألهُ أبو معاوية:

- ما رأيك الآن؟

أجابهُ الشخص السمين وهو يضحك:

- أفضل ممّا توقعت.. اتفقنا..

ثم خرجوا جميعاً، وأغلقوا الباب!

حدثَ ذلك ولم نفهم ما الذي يدور من حولنا!..

تساءلنا كأطفال فيما بيننا عمّا يجري، وجميعنا استنتجَ بمَن فيهم قاسم.. بأنّه على الأرجح قد يكون تاجراً جديداً حقيراً يرغب في شراء أطفال أقوياء.. لذلك كانوا يطعموننا هذا الطعام كله!

يبدو أنّنا على وشك بداية عمل مرهق ومتعب لا نعلم ما هو..

بعد يومين فقط.. وعند منتصف الليل..

أيقظونا من النوم بشكل مرعب كعادتهم معنا..

وقدّموا لنا الماء طالبين منّا أن نشربهُ!

لم أفهم لماذا يفعلون معنا هذا الفعل الغريب جداً؟

شربنا جميعاً مجبرين، ومازالَ النوم يحتل أعيننا المتعبة..

حتى لا نتعرض إلى العقاب الذي لا نقوى على تقبّله..

ثم خرجوا من عندنا، بعدما تأكدوا من شربنا للماء جميعاً..

عدنا إلى النوم.. وليتنا لم نعد، كانت أسوأ نومة أنامها في حياتي!

استيقظتُ وأنا أشعر كما لو أنّني نمتُ لأيام طويلة!!

شممتُ رائحة غريبة تتسلل إلى أنفي.. كانت أشبه برائحة المعقم..

كنتُ أشعر بالعطش الشديد بشكل غريب.. لساني كانَ جافاً..

لم أقوَ على الحركة.. كان هناك ثقلٌ ملحوظٌ على جسدي..

حرّكتُ رأسي بصعوبة، ولم أصدّق ما رأيت!

ما رأيتهُ.. كان غير مفهوم بالنسبة لي حينها..

رأيتُ جميع الأطفال ممددين مثلي على قطع إسفنجية..

والعديد من العبوات الخاصة بالإبر المغذية متناثرة من حولنا التي بدا عليها كما لو أنّها قد تمّ استخدامها!!

وبعض الأجهزة الصغيرة التي لا نراها إلا في المستشفى..

البعض نائمون والبعض الآخر مغمضو العينين، لكنّهم يئنّونَ ألماً!

حاولتُ أن أتحرك بشكل طبيعي، لكنّي شعرت بألم قوي في بطني.. فوضعتُ يدي من تحت اللباس على موضع الألم حتى يخفّ قليلاً..

تحسستُ موضع الألم.. شعرتُ بوجود شيء غريب متعرج!

حاولتُ أن أنهض جزئياً كي أجلس.. ونجحتُ بعد صعوبة..

نظرتُ إلى المنطقة التي تؤلمني، وصعقتُ!

شعرتُ بدوار وبالكثير من العرق على وجهي..

كان على جانب معدتي جرح طويل بعض الشيء قد خِيطَ بالكثير من الغرزات!!

ومن دون إرادة، وجدتُ نفسي أصرخ خوفاً وأبكي منهارة..

شاركني بعض الأطفال البكاء.. وأستيقظ من كان منهم نائماً..

فحاول "قاسم" كالعادة.. من ضبط أعصابنا..

ولكنّه كان يتألم كثيراً، ولا يقوى على الحركة مثلنا..

فتحَ الباب أحد الرجال.. ونظرَ إلينا وتأكّد بذلك من سلامتنا..

ثم نادى بقية الرجال وهو يقول:

- يا رجال.. لقد أستيقظ الأطفال جميعاً وهم بخير.

دخلوا علينا وتأكدوا من حالتنا الصحية وهم فرحون..

ثم أجبرونا على تناول بعض المسكنات..

ولم تحرّك دموعنا فيهم أيّ شيء من إنسانيتهم المعدومة أصلاً..

بدأتُ بمحاولة الحديث.. ولكنّي فشلتُ في توضيح مخارج الكلمات كالعادة.. خصوصاً وأنا أبكي

وأرتجف من رهبة الموقف..

وكذلك بسبب ثقل ألسنتنا جميعاً حينها..

انتبهَ قاسم إليَّ، وشعرَ أنّني أكثر الأطفال انفعالاً..

لقد كنتُ سبباً في نقل الرعب إليهم.. صرخَ بي طالباً الهدوء..

ثم طلبَ من الأطفال جميعاً أن يتحسّسوا أجسادهم..

ففعلوا ذلك ووجدوا خيوطاً قوية تخترق أجسادهم مثلي تماماً!

صمتَ قليلاً، ثم قالَ وهو يغمض عينيه بقوة من شدة الألم:

- لقد فعلها الأنذال.. لم أتوقّع ذلك أبداً.

سألهُ أحد الاطفال بينما كنّا نراقب المشهد وننتظر الإجابة:

- ما الذي فعلوه؟

- لقد قاموا بتنويمنا، ثم سرقوا من أجسادنا بعض الأعضاء.

لم نستوعبْ ما يقوله.. هذه التجارة ليست غريبة

عليَّ!

سبق وأن أخبرَني عنها "يحيى" عندما كنتُ برفقته..

حدثَ ذلك عندما التقينا بصديق والده الإرهابي السابق..

أبو مصطفى المصري(4).. الشخص الذي رافقتهُ في محاولتي الفاشلة بالعودة إلى بلادي كما تذكرون..

هل يُعقل أنّني قد وقعتُ الآن ضحية لمثل هذه التجارة؟!

يبدو أنَّ الشخص السمين الذي قد قامَ بالكشف علينا في ذلك اليوم هو مَن قامَ بهذا الفعل الإجرامي!

للأسف، هذا هو سبب اهتمامهم بنا طوال الفترة الماضية..

لا تفرحْ كثيراً عندما يحتويكَ أحدهم كما لو أنّكَ وردة!

فقد يقطفها معجباً، ثمّ يستمتع بها.. ثم يُلقي بها!!

لم يدرك الصغار ذلكَ بسبب صغر سنّهم..

لكنّهم شعروا بأنَّ ما قاموا به في حقّهم.. إجرام لا

يفوقه إجرام!

مجرد التفكير بكلمة "عملية" هو شيء مخيف للصغار قبل الكبار..

وقعُها على النفس سلبيٌّ، حتى وإن كانت عملية بسيطة..

هل يعقل أنّني فقدتُ أحد أعضائي الداخلية بكل هذه البساطة؟!

فقدتُ أسرتي وطفولتي.. فقدتُ وطني.. والآن أفقد جزءاً مني!

فهمتُ من قاسم كما شرحَ لنا فيما بعد..

أنّ هذه الأعضاء تجلب لهم أموالاً كبيرة بشكل أسرع كثيراً من تجارة التسول في الشوارع.. فالتجارة في بيع أعضاء البشر(5) لها دهاليزها المقززة.. ولها أناسُها الذين يسيطرون عليها!

كيف لهم أن يهتكوا أجساد أطفال؟

أن يسرقوا أعضاءً بهذه الطريقة الخطيرة غير الآمنة!

ألهذه الدرجة ليسَ لأرواحنا قيمة عندهم؟ يتعاملون

معنا كسلع يبحثون عن الاستفادة منها بأكبر قدر ممكن..

كم عدد الأطفال الذين يواجهون مثل هذه الأخطار؟

منذ متى؟ وإلى متى؟

الطيبون في هذا العالم يموتون أو يتضررون..

والأشرار وحدهم من يقتاتون على مصائب الضعفاء..

خطفوني من وسط مسجدٍ.. من وسط ملائكة..

كي أعيش وسط الشياطين!

لا ملاك مثل والدتي.. أنا حزينة لأجل كل هذا الحزن الذي قد تسببتُ لها فيه ولعائلتي.. دون أن أقصدَ مطلقاً..

مرّت قرابة ثلاثة أسابيع..

مكثناها في هذا المكان بعد هذه الحادثة المؤلمة لنا..

التئمتْ فيها جراحنا بشكل معقول.. ولكن نقصتْ أوزانُنا قليلاً..

وانحدرت فيها حالتنا النفسية إلى الأسوأ.. فالعجز

لدينا كان في

ذروته.. اشتقتُ إلى عائلتي فعلاً.. لقد تعبتُ كثيراً من هذه الحال..

قلتُ في نفسي: ليتني لم أفارق السجن..

على الأقل لما كانَ حصلَ لي كل ما حصل الآن من مصائب..

تخيلتُ لوهلة ردة فعل والدتي لو علمتْ بسرقة عضو يخصّني

من داخل جسمي.. بعدما حُرقَ لساني بداية اختطافي في جدّة!

حتماً سوف تنهار انهياراً مدمراً.. وقد لا تنهض منهُ أبداً..

تساءلتُ أيضاً: أين أهالي كل هؤلاء الأطفال؟

هل يوجدونَ معهم في البلاد نفسها؟

حتماً هم يفتقدونهم؟ ألهذهِ الدرجة يُصعب العثور عليهم؟

كلّها أسئلة تُناورني، وأنا أتنقل بالنظر بينَ وجوه

الأطفال..

ولكن للأسف!.. لا إجابات لها..

بعدما تأكدوا من سلامتنا نسبياً..

قرروا نقلنا إلى مكان آخر.. يبدو أنّ لديهم فكرة مشروع جديد!

طلبوا منّا الخروج لأول مرة منذ أن أدخلونا إلى هذا المكان..

كان الظلام متمكناً بعض الشيء.. أعتقد أنّه منتصف الليل تقريباً..

بعض الأنوار المتفرقة والبعيدة هي ما كانت تنيرُ لنا قليلاً..

وجدنا سيارتهم الكبيرة وقد كانت في انتظارنا..

صعدنا جميعاً بمساعدتهم.. جلسنا متقاربين والحيرة تحضرُنا..

جميعهم كانوا ملثّمين ومسلّحين كعادتهم..

تركونا في الصندوق المغطى، وبدؤوا يتناقشون ببعض الأمور..

قبل أن يبتعدَ آخر رجل كان قد وقفَ عند باب الصندوق المغطى..

كي يشاركهم الحديث منفعلاً.. أصواتُ همسهم كانت ترتفع..

وفي لمح البصر.. فرّ قاسم من بيننا كالبرق!

هذا التصرف جعلني أبادر.. وجدتُ نفسي أتّخذ القرار نفسه من دون شعور ولا أعلم لماذا؟.. ركضتُ خلفه أتبعهُ!

نعم لقد تجرّأتُ لأول مرة منذ حادثة اختطافي.. وهربتُ!!

بعدها بثوانٍ.. تَبِعنا طفلان آخران.. فانتبهَ الرجال لذلك، فتحركوا مسرعين خلف الطفلين وقبضوا عليهما.. فشلُهما كانَ خيراً لنا!

كانا سبباً هامّاً في تشتيت أنظار الرجال، وصرفها عن هروبي أنا وقاسم.. واصلتُ الركض خلفه والذي كان أسرع مني بكثير..

قبل أن يلاحظ أنّني أتبعهُ.. فتوقّف طالباً منّي أن أسرع..

فقرَّر بسبب بطء خطواتي التي كنتُ أراها سريعة..

أن ندخل إلى أحد الأحواش، والتي كانت شبه مهجورة وموحشة..

والبقاء فيها حتى الصباح..

كانت نبضاتي تتدافع بقوة، وأشعرُ كما لو أنَّ شيئاً يضرب صدري من خلف الأضلاع.. كنتُ أرتجف خوفاً.. وأسناني تصطفقُ ببعضها.. حاولَ قاسم تهدئتي، وطمأنني أنّنا هنا في أمان..

وأكّد لي أنّهم لن يلحقوا بنا؛ خوفاً من التأخير وانكشاف أمرهم..

بدأتُ بالهدوء تدريجياً.. شيئاً فشيئاً..

ولكن هناك ألمٌ في جسدي بدأ ينجلي تأثيرهُ على ملامحي!

موضع العملية.. يبدو أنّ خياطة الجرح قد تضررت قليلاً بعدما قفزتُ هرباً من السيارة.. كنتُ أضع يدي عليه لعلّه يهدأ..

بينما كان قاسم أكثر صبراً منّي وقوة.. كان متماسكاً كما لاحظتُ..

بدأتُ أدقق النظر في المكان..

كان الحوش مقزّزاً برائحته.. القمامة في كل مكان..

الأشجار المقلوعة ملقاة في أكثر من جهة.. وهناك الكثير من الحجارة المتراكمة.. سألني قاسم:

- لماذا خاطرتِ بحياتكِ.. البقاء معهم أفضل لكِ كفتاة.

استجمعتُ قواي وأنفاسي ثم أجبتهُ غاضبة:

- هروبكَ فجعَني، فقررتُ أن أتبعكَ دون تفكير..

كان يجب عليكَ أن تخبرنا.. كي نهرب جميعاً.

فهمَ حديثي الذي كان ثقيلاً في مخارج حروفه.. ثم قال:

- في مثل هذه الظروف.. الهروب الجماعي هو فشل جماعي.

- أنا حزينة.. لا أعلم ماذا ينتظر الأطفال من مصير.

- فكّري في مصيركِ الآن.. هو الأهم من كل شيء.

كان حديثهُ واقعياً جداً..

هنا عليكَ أن تفكّر في نجاتكَ، قبل أن تفكر في نجاة الآخرين..

للأسف، قد تكون أنانياً من دون أن تشعر بسبب فرط قساوة الواقع والحقيقة لا أجيدُ هذا الطبع ولا أحبّه.. لكنكَ قد تجد نفسكَ تمارسهُ دونَ أن تشعر..

اضطررنا إلى البقاء حتى بدأ ضوء الشمس بالتلاشي..

ثم طلبَ مني البقاء قبل أن يخرج للتأكد من أمان الشارع..

عاد إليّ وأخبرني أنّه ينبغي علينا الانتظار حتى يكتظ الشارع بحركة السيارات والبشر.. ثم نخرج كي نتغلغل بينهم..

حتى لا يسهل العثور علينا..

وبالفعل حصلَ ما أراد وخرجنا.. كنتُ أتبعه ولا أعلم إلى أين!

مشينا حتى ابتعدنا عن الموقع الذي كنّا مختبئين فيه..

ثم توقفنا بالقرب من دكّان.. بقالة صغيرة جداً..

نظر إليّ، ثم سألني:

- نحتاج إلى الماء.. هل تملكينَ نقوداً؟

الحقيقة كدتُ أن أنسى معنى هذه الكلمة.. فمنذ مدة طويلة لم ألمس نقوداً.. أجبتهُ عن طريق تحريك رأسي بعدم امتلاكي لأيّ شيء..

طلبَ مني أن أتبعهُ.. ثم دخلنا سوياً إلى دكان البقالة، وتحدّث مع البائع بعد أن أشار إليّ، وأخبرهُ أنني أحتاج إلى الماء فقط، ولكننا لا نملك أيّة نقود..

نظرَ إلينا البائع وتعاطفَ معنا ومع ملابسنا الرثة جداً..

ثم أخذ كيساً ووضع فيه عبوات من الماء والعصير البارد وبعض الخبز والبسكويت.. فرحنا جداً ولم نتوقعْ ذلك أبداً..

كان كريماً معنا.. شكرناهُ كثيراً كما لو أنّه قدّم لنا خروفاً مشويّاً..

جلسنا على الرصيف بعيداً عن المارة.. ثم بدأنا

بتناول الطعام..

نظرَ إليّ قاسم ثم سألني:

- هل أنتِ يمنّية؟

توقفتُ عن مضغ الطعام الذي في فمي.. ثم واصلتُ وابتلعته وأنا أفكر بإجابة مناسبة.. ووجدتُ نفسي أخبره الحقيقة:

- سعودية.

توقّف عن الكلام غير مستوعبٍ، ونظرَ إليّ مستغرباً..

حيثُ ظنّ أنّني نطقتُ حروف إجابتي بشكل خاطئ بسبب عطب لساني.. لكنّني أكّدتها له مرة أخرى.. فكرّر إجابتي وهو غير مصدق قائلاً:

- سعودية!

- نعم.

- كيف؟ مستحيل!

- قصة طويلة، أنا نفسي لا أصدق تفاصيلها..

ظلّ يتأمل ملامحي وهو غير مصدق!..

ثم طلبَ منّي أن أخبره قصتي كاملة كي يدرك ما قلته..

الحقيقة لم أكن مهيّأة لذلك.. ولكنّي وجدتُ نفسي أخبره كل شيء..

لعلّ وعسى أجدُ حلاً على يده..

وبالفعل أخبرتهُ قصتي بكل تفاصيلها البشعة..

منذ بدايتها في جدة.. وصولاً إلى الرصيف الذي كان يجمعنا حينها بدأ بحكّ رأسه كما لو أنّه عجزَ على تقبّل ذلك أو تصديقه..

صمتَ قليلاً ثم سألني:

- ما اسمكِ؟

- حالياً إيمان.

استغربَ من إجابتي، ثم سألني وهو متوتر من ذلك:

- أين إثباتاتكِ؟

- لا أملك أيّة ورقة.. دخلتُ هنا بواسطة جواز سفر أفغاني.

- ما هذه الدوامة؟ أنا لا أفهم هكذا أمور.

- ولا أنا يا قاسم.. أنا متعبة جداً ولا أحتمل المزيد.

- لماذا لا تعودين إلى أهلكِ؟

- أعود!.. أخبرني كيف؟

تساؤلي الصعب هذا كطفلة لطفل حتى وإن كان يكبرني..

هو أشبه بالصفعة.. حيث جعلته يصمت ولا يعرف الإجابة..

فالحلول في مثل هذه الأمور.. أكبر من أعمارنا..

قال متهكماً على واقعه وواقعي:

- ظننتُ أنّ قصتي أتعس قصة.. ووجدتُ من لديهِ قصة أتعس من قصتي بمراحل.. أنا بخير مقارنةً بكِ..

وجدتُ نفسي أتطفل بالسؤال.. فسألته:

- وماهي قصتكَ؟

- قصة طويلة لا وقت لروايتها الآن.. ولكن باختصار كنتُ أعمل مع والدي في تهريب القات إلى بلادكِ

السعودية.. وبعد وفاته.. أصبحتُ أعيش في منزل عمي وزوجته.. والذي واصلَ تجارة والدي في التهريب، ولكن باهتمام أقل.

عندما ذكر اسم بلدي..

شعرتُ أنّ قلبي قد تحركَ من موضعه في داخلي..

كان شيئاً لا أفهمهُ!.. لكنّه شعور جميل جداً، ومؤلم في نفس الوقت لاحظَ تأثري.. فواصلَ حديثه:

- لكنّ الشرطة قبضت عليّ بتهمة السرقة.. سرقتُ محفظة أحد كبار السن ومن سوء الحظ.. وقعتُ بسرعة في شر أعمالي. .سوفَ أعود إلى منزل عمي.. في مدينتنا "عمران(6)"

كنتُ صامتة.. فالضياع الذي أعيشه يفرض نفسه..

لأول مرة منذ اختطافي.. أجدُ أنّني لوحدي من دون خاطف!

لم أشعر بهذا الضياع من قبل.. كنتُ أكثر ركوداً معهم..

هذه المرة وجدتُ نفسي أمام الكثير من التساؤلات المقلقة..

إلى أينَ سوف أذهب؟ كيف سأتدبّر أموري؟!

تساؤلات مخيفة بدأت تتدافع إلى عقلي المنهك من التفكير..

سألني:

- ماذا سوف تفعلين لو تركتكِ هنا؟

- لا أعلم..

- ما رأيكِ أن تأتي معي إلى منزل عمّي حتى نجد لكِ حلاً؟

- إلى منزل عمّك؟

- نعم.. هو متزوج وليس لديه أبناء، وأنا أعيش في منزله سوف تُسعدُ بكِ زوجته.. هي امرأة حنونة وطيبة جداً.

كنتُ مترددة كثيراً.. ولم أتوقع عرضاً كهذا..

فأنا لا أعرف قاسم جيداً.. ولا أعرف إن كان صادقاً معي أم لا..

أحياناً قد تتقبّل أيّة يد تمتدّ لك، حتى وإن كنتَ لا تعرف ما خلفها..

ما يهمُّ.. أن تنتشلكَ من مصيبتك الحالية.. ولا تدري إن كان هذا الانتشال يجهّز لنا مصيبة أكبر أم لا!

لاحظ حيرتي وارتباكي.. فقرّر أن يصارحني بأمر مرعب!

حيث همسَ لي بعد أن اقترب مني:

- لا بدّ من أن نغادر هذه المنطقة بالتحديد.. بقاؤنا هنا خطر.

نظرتُ إليه ثم تداركتُ رهبتي من حديثه، وقلت:

- تقصد احتمال عودة الرجال، ومن ثمّ قد يعثروا علينا؟

- ليسوا أيّ رجال.. إنّهم يتنمون إلى تنظيم القاعدة(7)

لم أكن أدركُ ماذا يعني ذلك؟..

لكن هذا الاسم ليس غريباً عليّ.. شعرتُ وكأنّي سمعته من قبل..

سألتهُ عن الذي يقصده.. فأخبرني أنّ الرجال الذين قاموا بخطفنا هم أفراد يتنمون إلى تنظيم القاعدة..

متشددون دينياً بشكل مرعب لا رحمة لديهم.. لا يترددون في قتل العسكر..

ولا في فعل أي شيء بشع يجلب لهم الأموال بلا أيّ تأنيب للضمير

وأضافَ شيئاً ختمَ به حديثه المخيف:

"يكفي أنّهم استأصلوا أجزاء من داخل أجسادنا الصغيرة"

لا أصدّق أنني كنتُ في ضيافة "القاعدة" طوال تلك الفترة!!

نظرتُ إليه وأنا مسمّرة العينين لا أرمشُ.. وسألتهُ بصعوبة:

- هل سوف يتركوننا ؟

- هروبنا منهم حتماً أغضبهم.. وقد يكشف سريّة تحركاتهم.. ولا أعتقد أنّهم سيسمحون لصغار تافهين مثلنا أن يفضحوهم.

بعد هذا الحديث المخيف جداً..

لم يكن أمامي سوى قبول هذا العرض الوحيد..

فإمّا البقاء في الشارع كي أنتظر المجهول..

أو مرافقة قاسم والذهاب بنفسي نحو المجهول أيضاً!

مفارقة عجيبة أليس كذلك؟.. اختياران يحملان النتيجة نفسها..

أحياناً أن تذهب بنفسكَ نحو الذي تخشاه.. أفضل من انتظاره..

فالذهاب إليه.. يعني إنهاء قلق الانتظار الذي قد يقتلكَ رعباً وأنتَ باقٍ في مكانك!

وافقتُ أن أرافقهُ.. بالتأكيد كان هو الخيار الأقل خطراً..

توجّهنا نحو نقطة النقل التي كانت تبعد قرابة نصف الساعة..

كنتُ أمشي وأنا أتأمل ملامح الوجوه التي تنظر إليّ على عجل..

وحتى التي لا تنظر.. كنتُ أشاهد في معظمها قسوة الحياة..

الكل مشغولون في البحث عن قوت يومهم..

أصوات الصياح لا تنقطع، وأصوات السيارات المزعجة ورائحة دخانها الذي تخرجهُ بشكل شبه مستمر..

الدبابات الصغيرة.. عربات البضائع المتجولة..

حياة طبيعية يعشيها الكثيرون من البشر الذين لم ترحمهم الظروف وخلف كل هذا.. قلوب سوداء تخطط لنشر الشر بينهم!!

أتعبَنا المشي والألم حتى وصلنا مرهقين إلى نقطة تجمّع السيارات بدأ قاسم حينها بالتفاوض مع السائقين مفاوضات طويلة..

بحثاً عن أقل سعر ممكن.. وبعد الكثير من الصدامات..

اتّفقَ مع أحدهم.. بعد أن قابلونا بالرفض بسبب حالتنا السيئة..

حيث كانت ملابسنا متسخة بشكل مستفزّ.. ورائحتنا لا تُطاق..

وافقَ هذا السائق مجبراً لأنّ سيارته قديمة جداً ومتهالكة..

وكان يأخذ السعر الأقل من بين جميع السائقين..

ابتعدَ قاسم عنه.. ثم أخرج من خلف سرواله كيساً صغيراً جداً

كان قد خبّأهُ بذكاء.. أخرجَ منه بعض النقود!

تساءلتُ في نفسي: ألم يخبرني بأنّه لا يملك نقوداً؟!

سألتهُ بعفوية وقد تكون حاملةً بعض الغضب:

- ألم تكن تبحث عن النقود قبل دخولنا إلى دكّان البقالة؟!

ابتسمَ ثم قالَ متكهماً:

- صحيح.. وأصبحتُ أملك بعض النقود بعد خروجي منها.

أشرتُ إليه بيدي متسائلة عن معنى الذي يقصده من حديثه..

فاقترب مني وقالَ لي كما لو أنّه فهم تساؤلي الصامت:

- استخدمتُ خفة يدي التي أتميّز بها.

نظرتُ إليه مندهشة، وصرختُ من دون قصد قائلة:

- هل سرقتَ الرجل الذي ساعدنا؟

فهمَ ما أقصدهُ، ثم أجابَ بعدما ظهر الامتعاض على وجهه:

- لم أسرق.. أخذتُ ما أحتاجه.. هيّا نركب قبل شغل المقاعد بالركّاب.

ضايقني كثيراً ما قامَ به مع صاحب دكّان البقالة..

الذي تعاطفَ معنا، ولم يتأخر في مساعدتنا بتقديمهِ للأطعمة..

ما الذي يدفع طفلاً إلى فعل ذلك؟

سؤال بسيط لا يستحقّ من يعيش الاستقرار أن يطرحهُ..

ويبدو أنّني قد بدأتُ بالحصول على بعض الإجابات المناسبة له..

ولم أكنْ لأتقبّلها؛ لو لم أعشْ ما مرَّ به هؤلاء الأطفال المساكين..

ركبنا سيارة النقل الصغيرة، وجلسنا في أقصى المؤخرة..

جعلني أجلس بجانب النافذة؛ كي لا يجلس أحد بجانبي غيره..

شعرتُ أنّه يحمل في قلبه بعض الطيبة على الرغم من قلّة حديثه..

تذكرتُ حينها يحيى.. لقد فقدتهُ حتماً، ولا أعلم عنه أيّ شيء..

هل مازالَ مسجوناً؟.. هل واجهَ المصير البشع؟..

أم هل تدخّلت إحدى المعجزات من أجل إنقاذه كما أنقذتني؟!

اكتملَ عدد الركاب بسرعة.. وتوجّهنا إلى مدينة عمران.

مثل هذه المشاوير الطويلة..

لا يجعلها قصيرة ويختصر مللَها لدينا.. سوى الخلود إلى النوم..

وتلك كانت هي عادتي كما تعلمون.. لم أصمد كثيراً حتى وجدتُ نفسي مستسلمة غارقة فيه.. نمتُ طويلاً حتى أيقظني قاسم..

استيقظتُ فَزِعة ناسية أين أنا؟.. نظرتُ إليه وأنا محدقة العينين..

طلبَ منّي الهدوء، وتداركتُ الأمر وتذكرتُ أنّنا في رحلة سفر..

أخبرني أنّنا اقتربنا كثيراً من الوصول..

كانت ملامحه تشير إلى أنّه قد أخذَ قسطاً من النوم أيضاً..

لم نستجمع بعضاً من النشاط؛ كي نطرد بقايا الخمول..

حتى توقفت السيارة، وأعلنوا وصولنا، وبدأ الجميع بالنزول..

الهروب من الخطر..

لا يعني بالضرورة النجاة منهُ!

كانَ وقتُ الظهيرة.. أذكرُ سماع صوت آذان صلاة الظهر..

الذي كان جميلاً جداً وروحانياً.. كجمال المدينة البسيطة..

الإزعاج كان حاضراً.. أحاديث الناس المزدحمين في الموقع..

أصوات محرّكات السيارات.. وحتى بعض عربات الحمير..

كانت الشمس ملتهبة.. أحضرَ لي قاسم قطعة من صندوق ورقي قوي.. وطلب مني أن أحتمي بها من أشعة الشمس، وأن أتبعهُ..

توجهنا سيراً على الأقدام.. لم أقوَ على المواصلة..

بدأتُ أشعر ببعض الآلام في موضع إجراء العملية..

يبدو أنّني أجهدتُ نفسي كثيراً.. ولكن لا مجال للتراجع..

طلبتُ منه أن نرتاح قليلاً ثم نواصل السير.. ولم يمانع ذلكَ أبداً..

وفعلاً ارتحنا قرابة ربع الساعة، ثم واصلنا المسير..

وبعد مدة من الوقت المتعب.. وصلنا إلى بيت عمّ الطفل قاسم..

كان بيتاً متواضعاً من طابق واحد.. وخلفه فناء صغير..

طلبَ مني البقاء في الخارج، كي يدخل هو أولاً..

اختفى قرابة نصف الساعة، قبل أن يخرج برفقة عمّه وزوجته..

نظرا إليّ نظرة تمحيص.. ثم سألني وزوجتهُ تواصلُ النظر إليّ:

- ما اسمكِ؟ وأين أهلكِ؟

أصبحتُ أكرهُ هذا السؤال..

لأنّ الإجابة عليه مضيعة للوقت.. فلا أوراق لديّ تثبتُ هويتي..

ولا لسان سليم يمكنه أن يشرح للسائل قصّتي بشكل

واضح..

أصبحتُ أكرهُ التعرف على شخص جديد..

لأنّني على يقين بأنّ أول سؤال قد يبدأ به الحوار بيننا..

هو هذا السؤال الذي إجابتهُ لا تقنع أحدهم، ولا تفيدهم أصلاً..

وجدتُ نفسي أختصر كل هذا العناء، وأقول:

- إيمان.

- أين أهلكِ؟

قاطعهُ قاسم، وأنقذني من هذا العناء قائلاً:

- لقد أخبرتُكما في الداخل عن قصتها.. هي متعبة الآن.

- وأنتَ؟ كيف سوف نتعامل مع ورطة هروبكَ من الشرطة؟

- لم أهرب.. لقد أخبرتكَ بما حدث بالتفاصيل.

- ولكنكَ في نظرهم هارب.. سوف تجذبُ الأنظار نحونا!

كان عمّه غاضباً بسبب ما حدث.. يبدو أنّه يخشى شيئاً لا نعلمه..

علمتُ بعد ذلك أنّ تأخر قاسم في الداخل كان سببهُ صدمتهما بخبر سرقة الأعضاء من جسدي ومن جسده..

كانت صدمة بشعة غير متوقعة حتماً.. ولكنّي لم ألمس ردة فعل مؤثرة منهما.. هل مثل هذه الأمور طبيعية لديهما؟ لا أظنّ ذلك.

نظرَ عمّه إليّ، وقالت عيناه كل شيء من مشاعر الرفض تجاهي.. ولكنّ في داخله بعضاً من العاطفة التي انتصرت عليه..

طلبَ من زوجته أن تأخذني إلى الداخل، وتقوم باللازم معي..

لم تتردد أبداً في تنفيذ أوامر زوجها.. وفعلاً دخلتُ معها..

كان بيتاً شعبياً جميلاً ضيّق الممرات.. فيه غرف قليلة..

مشيتُ خلفها حتى وصلنا إلى الفناء الخلفي

المكشوف..

كان هنالك حصيرٌ تحت مظلة قماشية.. طلبتْ مني الجلوس..

ثم جلست أمامي.. نظرتُ إليها بتأمل.. كانت جميلة وبسيطة..

يلتفُّ حول وجهها الدائري حجاب لا تخلعهُ..

سألتني وهي تبتسم:

- أخبريني إيمان الجميلة.. كيفَ وصلتِ إلى هنا؟

أجبتُها إجابة مختصرة ليس لها علاقة بما سألتني عنهُ.. قلتُ:

- لا أعلم.. أنا مجهدة جداً..

لاحظت صعوبة النطق لديّ.. ولاحظت حقيقة إجهادي..

فشعرتُ من تغيّر ملامحها أنّها تعاطفتْ مع وضعي الصحي ولذلك توقفت عن طرح الأسئلة الفضولية..

ثم قدّمت لي نفسها، وهي تبتسم:

- أنا اسمي سميرة.. يمكنكِ مناداتي بالخالة

سميرة..

وزوجي يُدعى فاضل.. وقاسم ابن أخيه يعيش عندنا.

ثم سألتني بكل عطف، واضحٌ صدقهُ:

- هل تريدين بعضاً من الطعام؟

ابتسمتُ لها كإشارة بالموافقة المباشرة.. فذلكَ أكثر ما أحتاجه..

كان قلبي من الداخل يتراقص حينها فرحاً بهذا العرض الشهي..

كم أحتاج إلى وجبة طعام منزلية.. طُبخت بنيّة صادقة، لا بحثاً عن مكسب مادي.. وكانَ الأمر كذلك فعلاً..

أحضرتْ لي وعاءً كان يحمل مرق أحمر بالخضار.. توسّطهُ قطعة دجاج صغيرة.. وبجانبه خبز وكوب ماء بارد..

ياااااه!.. رائحتهُ تكفي، فكيف مذاقه؟

قدّمته لي بحبّ.. ووجدتُ نفسي لا أرفع رأسي عن

الوعاء حتى فرغتُ منه.. الحقيقة نسيتُ أنّها تجلس أمامي..

كانت تراقبني بابتسامة هادئة.. فسألتني بصدر رحب:

- هل ترغبين بالمزيد؟

- لا لا، أشكركِ على هذا الطعام اللذيذ جداً.

دخلَ قاسم وعمّه الذي كان يحمل كيساً ممتلئاً ببعض الأشياء..

أعطاهُ إلى زوجته وهو عابس الملامح، ثم قال لها:

- هذه بعض الملابس للطفلة.. تخلصي من ملابسها المتسخة وخلّصيها من الأوساخ التي تراكمت على جسدها أولاً.

شعرتُ أنّه جاملني عندما وصفَ ما كنتُ عليه بـ(الأوساخ) فأنا لم أستحمّ منذ فترة طويلة.. كان شكلي بائساً جداً..

كان يبدو على زوجها التوتر الشديد؛ بسبب وجودي في منزله!

أدخلتني الحمام.. كان صغيراً وبدائيّاً جداً..

يوجد في ركنهِ الأيسر دلوٌ، قامت بملئه بالماء الدافئ..

وعلى الجدار مرآة صغيرة، مثبتة بواسطة أسلاك حديدية رفيعة..

وفي منتصف السقف مصباح أصفر، ينشر إضاءة لا بأس بها..

لم أكن أحتاجها بسبب إضاءة الشمس المتوغلة من فتحات السقف..

سألتني إنْ كنتُ أرغب أن تساعدَني في الاستحمام..

ولكنّي رفضتُ ذلك خجلاً.. ولم تعارضني أبداً..

تذكرتُ والدتي عندما كانت تفعل ذلك معي.. كنتُ أسعدُ بذلك..

ليس كمثل الأم شخص.. يكفي أنّنا لا نُحرج من معرفتها بتفاصيل أجسادنا الصغيرة.. كم افتقدتُها بشكل لا يمكن وصفه..

قامت بتعليق كيس الملابس الذي أحضره زوجها

خلف الباب..

ثمّ أعطتني صابونة زرقاء، وقطعة قماش أجزم أنها ليست جديدة.

وبعد ذلك أغلقت الباب وهي تطلب مني أن أستمتع بوقتي..

الحقيقة شعرتُ كما لو أنني في أجمل حمام في الدنيا..

يكفي أنّني سأتخلص من وضعي المزري..

والأهم من هذا كله.. أنّني أقوم بذلك من دون خوف..

نظرتُ إلى وجهي في المرآة.. لم أكد أعرفُني!

ملامحي هزيلة جداً.. لقد كبُرت قليلاً.. بكيتُ من دون تمهيد..

تخيّلت أمي.. تخيّلت أختي.. وحتماً أبي..

بكيتُ لأنّ ذاكرتي أوشكت على نسيان تفاصيل ملامحهم بدقة..

تجاهلتُ ملامحي في المرآة.. وخلعتُ كل ملابسي

المتسخة..

ثم غسلتُ وجهي عدة مرات متتالية.. ومن ثمّ شعري وجسدي المنهك كله.. كان الماء الدافئ ينزل عليّ، وأشعرُ بالتعب ينزل معه من على جسدي.. شعرتُ بالألم في موضع إجراء العملية..

يبدو أنّ الصابون هو السبب..

توقفتُ قليلاً كي أستجمع قواي.. ثم جففتُ نفسي بقطعة القماش..

وبعد هذا كلّه.. نظرتُ إلى المرآة مجدداً..

كنتُ أحسن قليلاً.. شعرتُ أنّ هناك بعض الروح قد رُدت إليّ..

أخرجتُ الملابس من الكيس.. وبدأتُ بارتدائها..

كان اللباس الأساسي قميصاً بناتيّاً طويلاً رُسمت عليه الكثير من الورود الملونة.. كان جميلاً.. استلطفتهُ وأسعدني كثيراً..

الأطفال مثلنا يسعدهم أيّ شيء لطيف.. وكنتُ كذلك حينها..

خرجتُ من الحمام، واستقبلني نسيم هواء ناعم جداً.. لذيذ..

أجبرني على الابتسامة.. ووجدتُ الخالة سميرة تقف وتنظر إليّ مبتسمة.. تقدّمتْ نحوي وجفّفت لي شعري بشكل جيد..

ثم وضعت حجاباً أبيضَ على شعري، وقالت لي:

- كم أنتِ جميلة!.. لا تخلعيه أبداً في حضور قاسم أو عمّه.

لم تكن هناك غرفٌ كافية.. لذلك اتّخذَ زوجها قراراً صعباً..

طلبَ من قاسم أن ينام تحت المظلة في الفناء..

وأن أنام أنا في غرفتهِ الصغيرة جداً بدلاً منهُ، حتى أغادر..

لم يعجبني هذا القرار..

لكنّي وجدتُ قاسماً قد تقبّله بصدر رحب..

ما هذه النّعم المتتالية؟ هل أنا أحلم؟

أعيشُ في منزل طبيعي مع أناس طبيعيين؟

لم أمرَّ بمثل هذا الظروف الهادئة منذ فترة طويلة جداً للأسف..

حلّ الظلام، وأتى معه الهدوء..

كانت ليلة سريعة، نمتُ فيها نوماً عميقاً حتى بعد الفجر..

استيقظتُ بعدها نشيطة جداً..

لكنّ ألم خياطة الجراحة مازالَ يزعجني بشكل متقطع!

تحاملتُ على نفسي.. وقمتُ بارتداء حجابي..

وقبل خروجي من الغرفة.. سمعتُ حواراً بين المرأة وزوجها..

أرعبَني قليلاً.. كان يصرخ عليها مردداً أنّ وجودي في بيتهم خطرٌ عليهم جميعاً.. وواصلَ:

- قاسم مفروض علينا لأنّه ابن أخي.. ولكن ما دخلنا في هذه الطفلة الخرساء.. ماذا لو عثروا عليها في منزلنا؟

كانت تحاول تهدئته.. وتحاول أن تعطيه الوعود بأنّها

لن تسمح لي بأن أخرج إلى الشارع أبداً.. ولم يكن يقنعهُ حديثها..

حتى غادر غاضبا..

يبدو أنّه يقصد أفراد العصابة التي هربنا منها!

"القاعدة" كما أخبرني "قاسم" عن مسمّاهم..

انتظرتُ قرابة ربع الساعة.. قبل أن أخرج وأنا أتظاهر بعدم سماعي لأيّ شيء من الحوار..

وجدتُ الخالة سميرة تنشر بعض الملابس استعداداً لتجفيفها..

نظرتْ إليّ مبتسمة، ثم قالت:

- صباح الخير.. استخدمي الحمّام، ثم صلّي الفجر وتعالي كي تتناولي طعام الإفطار.. ثم أخبركِ عن مهامكِ اليومية.

مهام يومية! ما الذي ينتظرني؟

لكنَّ ما لفتَ نظري كثيراً.. طلبها مني القيام بالصلاة!!

الحقيقة لم أكن أحافظ عليها.. فلم أكن أملكُ الوقت

أو التفكير بذلك..

ولم يدفعني أحدٌ إلى فعل ذلك سوى الخالة سميرة لأول مرة..

تلك إحدى عيوبي التي اكتسبتُها في غربتي الإجبارية..

وتأقلمتُ معها للأسف من دون قصد..

بعد أن فرغتُ من الصلاة والإفطار البسيط..

طلبتْ منّي الاقتراب.. نظرتْ إلى ملامحي ثم سألتني مبتسمة:

- لماذا ملامحكِ الجميلة يكسوها كل هذا الحزن؟

الحقيقة كنتُ أشعر كما لو أنّ ملامحي خُلقت من عجينة هموم..

فقلتُ لها وأنا محبطة:

- مهمومة.. أريدُ أن ينتهي هذا الكابوس.

قالت لي بعد أن أخذت نفساً عميقاً:

- لو قيست الهموم التي تسكنُ عقولنا بالميزان لما استطاعَ أحدُنا أن يحمل رأسه!

ثم قدّمت لي مكنسة.. وهي تقول:

- ليس لديّ أحد يساعدني في البيت.. أحتاج إلى مساعدتكِ.. كل صباح عليكِ تنظيف هذا الفناء، ومن ثم رشّ الماء..

خادمة مرة أخرى!

لم أكن أنتظر هذا الشقاء.. ولم أكن أتوقّعه بعد هذه المعاملة الحسنة.. ولكن حتماً لن أمانع طالما أعيش بأمان بينهم.. وبالفعل، كنتُ أقوم بهذا العمل كل صباح.. ليس ذلك فحسب.. بل كنتُ أساعدها برفقة قاسم ومجموعة نساء في تصفية وتجهيز ربطات "القات" في الفناء كل أسبوع!

هذه التجارة هي التي قد ورثها العمّ فاضل من أخيه بعد وفاته.. كنتُ أساعدهم رغماً عنّي كي يقوم بتهريب القات إلى بلادي!!

شعور غريب لا أعلم كيف لي أن أصفهُ لكم..

أن ترسل السمّ إلى أهلكَ..

أن تساهم في خرق القوانين في بلادك!

الحقيقة لم أتعرّف على خطورة تلك النبتة إلا متأخراً..

مرّت الأيام، ولم يتغير هذا الروتين المجهد..

كنتُ أشاهد قاسم مرات قليلة جداً، وكان لا يمكنه الحديث معي أبداً كانت تعليمات عمّه صارمة.. وكان ينفذها بحذافيرها..

هذا العمل المتكرر.. جعلَ الألم في جسدي يتضاعف..

في كل يوم أشعر أنني أسوأ من الذي قبله..

كنتُ أتمالك نفسي.. ولا أنام ليلاً إلا بصعوبة من وخز الألم..

حتى أتى اليوم الذي أخبرتُ فيه الخالة سميرة..

كشفتُ لها عن الجرح كي تراه.. تضايقتْ كثيراً بعدما رأته..

ووضعت لي فوراً بعض الكمادات.. التي لم تكن تملك سواها..

لكنّي شعرت بأنهّا لم تتأثر كثيراً!

هم لم يتأثروا عندما أخبرهم قاسم بما حصلَ له أيضاً..

فكيف لهم أن يتأثروا تجاهي؟!

لقد ساءت حالتي.. للأسف؛ لم يكن هذا في الحسبان..

ارتفعت حرارتي كثيراً.. ممّا اضطرهم أن يبقوني في الفراش..

الحقيقة تُقال.. لم تبخل عليّ الخالة سميرة بالاهتمام..

ولا حتى بالطعام.. وكان ذلك يُغضب العم فاضل بعض الشيء..

فأنا في نظرهِ أستنزف المصاريف من دون فائدة..

بقيتُ على هذا الحال قرابة ثلاثة أسابيع!

لم أفارق فراشي إلا لتبديل ملابسي أو قضاء حاجتي..

كانت فترة صعبة.. أقضيها بالبكاء ليلاً..

وأعلمُ أنّ بكائي هذا لن تسمعه والدتي.. ولا

والدي..

كنتُ أنام بصعوبة.. وإن نمتُ أحلم بعائلتي كثيراً أحلاماً سيئة..

وأستيقظ مواصلة بكائي.. للأسف كنتُ أحكّ موضع جرحي رغماً عنّي.. وكان ذلك يخلّف جروحاً أخرى تزيدهُ سوءاً!

حتى تدخلت الخالة كي تقنع زوجها العنيد جداً بعد إلحاح مستمر..والذي كان يرفضُ ذهابي إلى الطبيب نهائياً..

بأنْ يحضر لها مرهم تدهنُ به جرحي؛ حتى يلتئم ويخفّ ألمه.. وبالفعل، وافقَ وكلّف "قاسم" بهذه المهمة التي تأخرت كثيراً..

أحضرهُ وكأنّه أحضر لنا ترياق الخلود.. أصبحتْ الخالة تضعهُ

لي بنفسها يومياً، ولم تقطع عنّي الكمادات أبداً..

وبعد أسبوعين.. انخفضت حرارتي، وشعرتُ بهدوء في الجرح..

هدوء ألم فقط.. ولكنّي لم أشعر أنني بخير تماماً..

لكم أن تتخيلوا أنني بقيتُ طريحة الفراش أكثر من شهر!

لم أبقَ طريحة الفراش بهذه الطريقة منذ اختطافي..

بعدها بفترة بدأتُ بالتحسن بشكل تدريجي..

فعدتُ إلى العمل مع النساء بمهمّات بسيطة رغماً عني..

حتى سمعتهنّ يتحدثن أثناء العمل.. حيث قالت إحداهن:

- لماذا علينا تجهيز هذه الكميات الآن، طالما أنّها لن تُشحن إلى حدود السعودية قبل أسبوعين على الأقل من الآن؟

أجابتْها الخالة سميرة، وهي تمسح العرق من فوق جبينها:

- وما الجديد؟ زوجي يفضّل أن يجهز العمل مبكراً قبل أن ينسّق بقية الأمور، ويرسل البضاعة مع رجاله إلى الحدود.. يريد أن يوصلها إلى ما قبل الحدود.. خلال يوم أو يومين.

ثم أكملنَ أحاديثهنَّ في مواضيع أخرى أثناء عملهنّ..

بقيَ هذا الحوار يدور في عقلي دون توقف.. السعودية!

سوف يتوجّه العم فاضل إلى بلادي!!

تبادرَ إلى ذهني سؤال واحد فقط: لماذا لا أرافقهُ إلى هناك؟

انتظرتُ مغادرة النساء بعد فراغهنّ من العمل..

ومن دون تأخير اقتربتُ من الخالة سميرة، وتوجهتُ بنظري إلى

عينيها وقلتُ لها بشكل مباشر، ودموعي تنهمر من دون شعور:

- أرجوكِ يا خالة.. أريد أن أرافق زوجكِ في رحلته القادمة.

استغربتْ من حالتي!.. كنتُ أتوسل إليها توسّلاً..

طلبت مني الهدوء، وحاولت أن تشرح لي أنّ طلبي مستحيلٌ..

أخبرتُها أنني لا بدّ أن أعود إلى عائلتي في

السعودية..

كانت تفهمني في بعض الحديث.. والكثير منه لا يصلها واضحاً..

دخلَ قاسم علينا في الفناء.. على وقع بكائي وتوسلاتي..

اتّضح لي أنّه قد سمع كل شيء.. إذ قال مخاطباً زوجة عمّه:

- فكرة لم تخطر على بال أحدنا.. لماذا لا نطرحها على عمّي؟

- ولكنكَ يا قاسم أنتَ أكثر من تعلم خطورة هذه الرحلات.. هي رحلات من أجل التهريب، وليست رحلات سياحة.

- هي مخاطرة من أجل الحياة.. نحنُ نريد المال، وهي تريد عائلتها.. كلا المهمتين لهما ثمن يُدفع للمحاولة.

نظرت إليّ الخالة سميرة نظرة صمت..

كانت نظرة تحمل مشاعر متضاربة.. أشاحتْ بوجهها عنّي،

ثم قالت:

- لقد تعودتُ عليكِ.. شعرتُ كما لو أنكِ ابنتي التي لم يرزقني إيّاها القدر.. لا أعلم حجم حزني إن وافقَ زوجي على طلبكِ.

هذه الكلمات جعلتْ دموعي تتوقف..

شعرتُ أنّ هناك شيئاً صادقاً يربطني بهذه المرأة التي لم تقصّر معي أبداً.. صحيح أنّها أتعبتني في الأعمال المنزلية.. لكن هذه هي طبيعة الحياة هنا.. الكل يجب أن يعمل حتى يعيش..

هي لم تفرض عليّ أيّة قيود في هذا المنزل..

كان يمكنني الهرب بسهولة.. لكن هذه الفكرة لم تراودني أبداً..

هناك نوع من الطيور.. تُتركُ لها الأقفاص مفتوحة، ولا تختار الهروب.. ليس رفضاً للحرية.. بل لأنّها وجدت "الأمان"..

كذلك بعض القلوب، لا نقوى على مفارقة أصحابها..

حتى وإن كانت الظروف والأعذار تبرّر ذلك!!

إنَّ أصدقَ الاهتمام وأجمله هو..

الذي يُعطى ولا يُطلب.. يلقانا ولا نبحثُ عنه..

وهذا ما كانت عليه الخالة سميرة معي طوال فترة وجودي بينهم..

وعدَني قاسم خيراً..

أنّه سوف يبذل كل جهده لإقناع عمّه برحيلي غداً..

مرّت ساعات تلك الليلة بشكل بطيء جداً..

كنتُ أتخيّل فيها كل السيناريوهات المتوقعة التي تنتظرني..

أتخيّل كيف سوف تكون مشاعري في حال الرفض..

وكيف سوف تكون في حال الموافقة..

سرَحان طويل كطول الليلة الصعبة.. أتخيّل فيها كل شيء..

ما مررتُ به من صعوبات لا تصدق.. يكاد يمحو كل ذكرياتي مع عائلتي.. ذاكرتي لا تحمل لي سوى الألم..

أتى الصباح..

ومارستُ طقوسَ يومي كما هي عادة الأيام المنصرمة..

وبعد انقضاء فترة الضحى..

كنتُ أجلس بالقرب من الخالة سميرة، وأراقبها وهي تستعمل ماكينة الخياطة.. وجدتُ العم فاضل يتقدم نحونا حتى جلسَ أمامنا..

كان قاسم يقف بعيداً وهو يراقبنا..

نظرَ عمّه إليّ.. ثم إلى زوجته.. وأخذ نفساً عميقاً ثم حدّثها:

- ما تطلبه الطفلة مخاطرة.. ونحن رجال نخاطر بأعمارنا.

- أخبرتُها ذلك.. لكنّها مصرة.. تريد العودة إلى عائلتها.

نظر إليّ، ثم سألني:

- هل لديكِ عنوان منزلكم؟

الحقيقة تحنَّط لساني.. فليست لديّ إجابة.. لكنَّ

ما جعلني أتوتر أنّ سؤاله هذا أعطاني انطباعاً.. أنّه قد اقتربَ من الموافقة على طلبي.. تدخّل قاسم بعد أن اقتربَ بخطوات بطيئة..

وكأنّه يخشى ردة فعل عمّه.. ثم قال:

- ليس هامّاً العنوان.. ما يهمُّ أن نساعدها في الوصول إلى مركز أمني سعودي حدودي، ومن ثمّ تقوم هي بإخبارهم بكل شيء.

كانَ تدخّلاً ذكياً ولافتاً.. جعلَ العم فاضل يصمت ويتفكّر به..

كان كل ما يشغلهُ كيفية نقلي إلى هناك من دون خسائر لهم!

هو يخشى أن أكون سبباً في تعطيلهم.. أو في القبض عليهم ربما..

لا أعلم كيف كان يفكّر.. لكنّه كان أغلب وقته مشتّت الخاطر!!

وبعد وقت من التساؤلات والتفكير، وحتى الصمت المتقطع..

ومن دون مقدمات توحي بأيّة نتيجة.. أعلنَ العم

فاضل:

- غداً بعد منتصف الليل سوف نغادر.. جهّزيها يا سميرة.

لم أصدق ما سمعته!..

من دون إرادة رميتُ بنفسي إليه مقبّلة رأسه، وشكرتهُ على هذه

الموافقة التي تشبهُ موافقة فتح أبواب الجنة..

أبعدني عنهُ بقوة، وشعرتُ بألم قوي في جرحي الذي يزعجني..

ولكن لم يكن يعنيني ذلك أبداً.. فالفرحة جعلتني أتحاملُ على ذلك..

فرحَ قاسم كثيراً، وكانت ابتسامته لا تفارقه.. لأول مرة أشاهدها..

ولكنّ الخالة سميرة لم تكن سعيدة بالقرار بذلك القدر الكافي..

يبدو أنّها اعتادتْ عليّ فعلاً، ولا تتمنّى فراقي..

الحقيقة لقد أحسستُ بالمشاعر نفسها.. ولكنّي

مجبرة..

وكانت تلك فرصتي الثمينة التي لن تتكرر..

في الليلة الأخيرة.. كانت لا تفارقني فيها.. تتحدث كثيراً..

كم افتقدتُ إلى مثل هذا الشعور.. عاطفة الأم ورائحة حضنها المميزة.. حدثتني بكلمات عميقة لم أستطيع نسيانها أبداً.. كانت مشغولة بتصفية كمية من العدس في وعاء صغير.. ثم قالت:

- لطالما تمنيتُ طفلة.. لكن كلما رأيتُ في محيطي حجم الألم الذي يعيشه الكثيرون من الأطفال هنا.. خفّفَ عليّ ذلك ألم الحرمان.. فما قيمة أن أفرح بقدوم مولود جميل تنتظرهُ حياة تعيسة؟

لامستْ كلماتها داخلي بقوة، على الرغم من صغر سنّي..

ولكنّني عجزتُ على الرد بكلمة مواساة واحدة للأسف!..

نظرتْ إليّ ثم ابتسمت.. ثم نهضت وطلبت مني أن أتبعها..

أخرجتْ حقيبة قماشية.. الحقيقة أنّها كيس أرز حوّلتهُ هي إلى حقيبة لطيفة جداً.. فتحتْها وأخرجت منها ملابس متنوعة تناسبني وعباءة جديدة سوداء.. وبعض المعلبات الغذائية.. قدّمتها لي، ثم قالت:

- كلّها لكِ.. أحببتكِ يا إيمان، رغم قصر مدّة وجودكِ هنا.

أقسمُ لكم إنني بكيتُ بكاء طاهراً لم تذوقهُ عيناي منذ فترة طويلة..

ارتميتُ في حضنها متناسية كل الجهد الذي جعلتني أبذلهُ في الخدمة اليومية..

وأخبرتُها أنّني أحبّها أيضاً.. مسحتْ لي دموعي بيديها اللتيْن

كانا ملمسهما في قمّة الخشونة؛ بسبب صعوبة الحياة..

ثم قبّلتني بحنان على خديّ.

لقائي بالخالة سميرة هذه المرأة الطيبة.. هوَ من أجمل الأمور

القليلة جداً التي حدثت لي طوال مسيرة رحلتي

المتعبة والقاسية..

مرّ الوقت حتى اقتربَ منتصف الليل..

حضرَ العم فاضل وقاسم الذي كان يرتدي عمامة حول رأسه..

وكنتُ على أتمّ الاستعداد.. كنتُ أشعر بشيء أشبه بالدوّار..

لا أصدّق أنّي على وشك إنهاء تلك الصفحات السيئة جداً من حياتي..

تحدّث العم فاضل بنبرة حادة كعادته:

- سوف يرافقكِ قاسم يا بنت.. سوف تذهبان برفقة رجالي الذين أخبرتُهم بما يجب أن يفعلوهُ معكِ.. سوف يسعَون كي يوصلوكِ إلى منطقة قريبة من أيّ مركز حدودي في بلادكِ وباقي الأمر يعود إليكِ.

حاولت زوجته التدخل، وإقناعه بأن يجعلهم يوصلوني إلى مكان أكثر قرباً، بدلاً من أن يتركوني وحدي في منطقة وعرة..

ولكنّه كان حازماً.. فقد صرخَ في وجهها رافضاً منها التدخل..

فكما يردد: إنَّ هذه ليست مسؤوليته.. لكنّه يريد أن يتخلص منّي قبل أن يتورط بي، أو يتحمل عواقب وجودي في بيته!

لا أعلم لماذا يخشى من وجودي بكل هذا القدْر؟

يبدو أنّ لدى هذا الرجل ما يخفيه!..

لا يهمّني ذلك.. طالما أنّ وقت مغادرتي قد حان..

وفعلاً.. جاء وقت مغادرتنا..

ارتديتُ عباءتي.. ودّعت الخالة سميرة وداعاً حاراً بالاحتضان وبذرف الدموع، وودّعني العم فاضل وداعاً عابراً، كما لو أنّني لا شيء..

ساعدني قاسم على صعود السيارة التي سوف تقلّنا إلى وجهتنا..

كنت أتألم مع أي مجهود قوي، يتطلّب مني القيام بأية حركة صعبة.. كصعود سيارة مرتفعة، أو حمل أغراض ثقيلة، وما شابه ذلك..

كالعادة ركبنا في العربة الخلفية.. كانت مغطاة وهذا أفضل شيء..

كانت مليئة جداً بأكياس القات.. وكان موجوداً معنا رجلان نحيلا الجسد.. من ذوي البشرة السوداء.. كانا ينظران إلينا بشكل مرعب جداً.. أخبرني قاسم بصوت منخفض أنّهما من الجنسية الأثيوبية.. وأمّا في مقدمة السيارة، فقد جلسَ شخصان، والثالث كان السائق..

انطلقنا وأنا أحتضنُ حقيبتي القماشية، وأجلس بالقرب من قاسم..

ها أنا أخوض رحلة جديدة لا تقل خطورة عن مغامراتي السابقة..

سألتُ قاسماً سؤالاً بريئاً بعد أن أمضينا قرابة ربع الساعة:

- متى سوف نصل؟

ضحك ضحكة قصيرة، ثم قال:

- أعلم أنكِ مستعجلة على العودة.. لكن مازالَ أمامنا الكثير.

- لا يهم.. ما يهمّ أن نصل.

- ما يهمّ أن نصل إلى صعدة.. إلى مديرية

منبه(8).. إذا وصلنا إلى هناك، ومرت الأمور كما هو مخطط لها.. يسهل كل شيء.

استغربتُ لماذا كل هذه التعقيدات والطرق الملتوية!..

لماذا لا نتوجّه مباشرة نحو الحدود السعودية؟

سألتُ نفسي هذا السؤال، قبل أن أبوح به بصوت واضح موجّهة هذا التساؤل إلى قاسم..

كان لا يحبّ الحديث عن التفاصيل.. شخصيّته صامتة..

ولكنّه أجابني جواباً مخيفاً لم أفهمه إلا فيما بعد.. حيث قال:

- العم فاضل يجهّز البضاعة، ويسلمها إلى التجار الأقوياء

هناك.. هو يتاجر معهم في القات فقط، وغيره يتاجر معهم بالهيروين والحشيش والأسلحة وغيرها.. فليس مسموحاً على الحدود لأيّ شخص أن يصبح تاجر ممنوعات بسهولة.

- وهل يوجد التجار هناك فقط؟ وهل هم من سوف

ينقلوننا إلى بلادي؟

- ليسوا وحدهم في اليمن.. ولكنّهم الوحيدون في صعدة، وأهم المسيطرين هناك.. يتعامل معهم والدي منذ سنوات مقابل نسبة من المال.. وبعد وفاته أقنعهم عمّي أن يكون خليفته.. ولم يقتنعوا به إلا بعد تجربته.. يُدعون الحوثيون(9)

حوثيّون!..

الحقيقة لم أفهم أيّ شيء.. وعندما سألتهُ عن المعنى..

أجابَ بأنّهم اسم لجماعة يمنية في "صعدة" تجمعنا معها المصالح..

ثم تجاوز التفاصيل المعقدة حتى يطمئنني قليلاً، ويُنهي كل أسئلتي المزعجة:

- سبقتنا بساعات إلى هناك ثلاث سيارات تحمل بضائع مختلفة.. وسوف تتبعُنا بعد ساعات أخرى سيارتان أيضاً.

إجابتهُ هذه جعلتني أستنتج حجم البضائع المحظورة المنقولة إلى بلادي.. ستّ سيارات مرة واحدة،

مدججة بكل أنواع السموم!

تمّ تحريكها في أوقات مختلفة.. كي تصل في أوقات متباعدة..

في كل رحلة برية أخوضُها.. لم يكن لي قرار فيها..

هذه المرة كنتُ أنا صاحبة القرار بالسفر.. لذلك لم يزرني النوم تلك الليلة أبداً.. كنتُ سارحة البال في أغلب الوقت..

مرّت قرابة الساعتين وربما أكثر..

منذ أن انطلقنا في الطرق المتعرجة.. لم أحسبْ المدة بدقة..

ولكن.. حدثَ أمر غريب.. لقد توقفت السيارة فجأة!

لم يكن عطلاً كما ظنّنا في البداية.. بل كان اتصالاً لتبديد كل شيء! سمعنا السائق يتحدث مع مرافقيه غاضباً من الخبر الذي وصلهُ..

لقد تمّ إفشال اختراق سيارتين للحدود السعودية، ومن ثم مصادرة كل ما فيهما من بضائع محظورة!

وعليه، أعطيت الأوامر فوراً بتوقف تقدّم بقية السيارات والإذن بعودتها إلى مقرّاتها، حتى يتم تحديد موعد جديد..

فليس هناك فائدة ولا حاجة للقدوم إلى أماكن وجود تجار التهريب..

لم أصدق ما سمعته!.. لم يكن يهمّني بضاعتهم ولا خططهم..

ما يهمّني هو أن أصل إلى المركز الحدودي في بلادي، ومن ثمّ إلى عائلتي.. نظرتُ إلى قاسم الذي وجدتهُ محبطاً جداً..

سألتهُ وأنا متوترة منتظرة إجابة مختلفة عن التي استنتجتُها:

- ما الذي يحدث؟ هل سوف نعود إلى منزل عمّك؟

حاول تهدئتي.. ولكنّه لم ينجح.. ارتفعَ صوت بكائي كعادتي..

نهضتُ واقتربتُ من عربة القيادة.. وكنتُ أصرخ نحو السائق وأطلبُ منه المواصلة نحو الأمام.. كان غاضباً وزدتهُ بتصرفي العفوي هذا غضباً فوق غضبه..

فصرخَ في وجهي بكل قوته مهدداً بأنّه سوف يتركني في الخلاء إن لم أخرس..

ثم أدارَ وجهة السيارة، وعاد إلى نقطة انطلاقتنا السابقة بكل بساطة!

توسّل إليّ قاسم بأن أهدأ.. وبدأ يشرح لي أنّ سلامتنا هي الأهم..

وأنّ ما حدث ليس النهاية.. بل سوف نكرر المحاولة مرة أخرى..

مللتُ البكاء الذي يعتصر عينيّ، بسبب الإحباط الذي لا يتردد أبداً في اغتيال أيّة بوادر أمل تلامسُ روحي..

فما أكادُ أشعر أنّ هناك فرجاً قد اقترب مني، حتى يتلاشى مسرعاً.. أصبحتُ أشكّ في قدوم الفرج!

أسمعُ به ولا أراه.. يتجول في خيالي ولا أدركهُ..

متى سوف يظهر من دون تعقيد، ويحتضنني بكل خيباتي؟

حالتي السيئة التي كنتُ عليها أثناء العودة.. أعادت لي وخز ألم

الجرح المستفز في جانبي.. والذي أصبح وفيّاً لي بتقلباته..

لم تكتمل فرحتي باتخاذ قرار سفري بنفسي..

حتى أصبحَ قرار عودتي قراراً إجبارياً، فرضته عليّ الظروف..

هناك شعور يأتي إلينا أحياناً بعد كل حالة بكاء بسبب إحباط ما..

شعور يجعلكَ تحسُّ بتبلّد غريب لا تفهمه، لكنّه يجعلكَ ساكناً.

يخبركَ بأنّك في قمة عجزكَ.. وعليه، تجد الصمت انعكاساً لحالتكَ!

مرَّ الوقت أثناء عودتنا ببطء سيئ جداً..

لم نتحدثْ أنا وقاسم أبداً.. ولم تنزل دموعي التي ربما قد نفذ مخزونها في هذا اليوم المحبط جداً..

وقبل حلول الفجر بفترة قصيرة..

كنّا قد وصلنا عائدين ونحن نجرّ الخيبة إلى منزل العم فاضل..

نزلنا من عربة السيارة.. ونزل كذلك معنا جميع الرجال..

لم نصدق ما رأتهُ أعيننا!

وضعتُ يديَّ على فمي، بعد أن شهقتُ بقوة مصدومة!

ركضَ قاسم نحو المنزل، بعد أن صرخ مفجوعاً من هول ما رأى!

كان المنزل محروقاً بالكامل!!

وجدتُ نفسي أركض خلفه دونَ شعور وأنا مرعوبة..

كل شيء في الداخل متفحّم.. يتضح من رائحة المكان وتصاعد الدخان أنّ هناك من أخمد النيران.. ولكن بعد فوات الأوان!

كان قاسم يصرخ منادياً باسم عمّه وزوجته.. الخالة سميرة..

اعترتْ جسدي رجفة قوية، جعلتني أنتفضُ خوفاً وتفجُّعاً..

كنتُ أتمنى لو كانَ ما أشاهدهُ حينها مجردَ كابوس

ثقيل فقط..

فجأة.. سمعنا صوت السيارة تغادر.. ركضنا نحو الخارج نطلب النجدة.. ولكن للأسف.. وجدنا أنّ الرجال الجبناء قد هربوا وتركوا طفليْن مراهقين لوحدهما أمام كل هذه البشاعة!..

نجدة!.. أيّة نجدة نطلبها بعد أن انتهى كل شيء؟

لأول مرة أشاهدُ فيها دموع قاسم.. سقط على الأرض يبكي مذهولاً من هول ما رأى!.. كيف حدث كل هذا؟ ولماذا؟

تقدّم إلينا بعض الجيران، كانوا يستعدون لصلاة الفجر..

بعد أن شاهدوا قاسماً.. وتحدّث أحدهم باندفاع وفزع:

- قاسم أأنتَ بخير؟

نهضَ قاسم، ثم سألهم وهو يبكي مرعوباً:

- ما الذي حدثَ، أخبروني؟!

أجابه أحدهم وهو في قمة الحزن:

- فجأة احترق منزلكم، وتساعدَ الأهالي في إخماد الحريق الذي كان كبيراً ولم ننجح إلا بصعوبة، وبتدخّل سيارة الإطفاء التي وصلت متأخرة للأسف.

- أين عمّي وأين خالتي؟!

صمتَ الرجال قليلاً.. ولم يتمكنوا من الحديث مباشرة..

هنا، صرخَ قاسم في وجوههم بقوة، وكرَّر السؤال مجدداً..

قبلَ أن يتجاوب أحدهم مع قاسم، ويخبره شيئاً أشبه بالدمار:

- كنا نتساءل: أين جثتك يا قاسم؟.

جثث!!

هل يقصد أنّ.. لا، لا مستحيل.. العم فاضل والخالة سميرة!

لم يتمالك قاسم نفسه؛ فسقط على الأرض مجدداً..

وبقيتُ بجانبه أبكي.. وأنا أحاول التقاط أنفاسي التي تتلاشى..

اقتربَ الرجال محاولين تهدئتنا.. ثم قال أحدهم:

- تعالا إلى منزلي ريثما تتضح الأمور أكثر.

رفضَ قاسم ذلك.. وفي لمح البصر نهضَ وطلب مني أن أتبعهُ..

حاولوا منعه من المغادرة.. لكنهم فشلوا.. ورضخوا للواقع..

كان يسير بسرعة، وكنت أحاول اللحاق به بصعوبة..

أتعبني السير خلفه لمسافة طويلة.. ولم أكن أستطيع أن أعارضهُ؛

فحالته كانت صعبة جداً.. وأنا أكثر مَن يعلم ألمَ فقد العائلة..

توقّفَ بعدما لاحظ أنّني أضع يدي على موضع جرحي ولا أقوى على التقاط أنفاسي.. طلبَ مني الجلوس قليلاً..

ثم قال:

- سوف نذهب إلى صديق عمّي المقرب جداً.. العم سليم.

طلبَ منّي التحمل قليلاً، حتى نصل إلى منزله..

أكملنا المسير حتى وصلنا بعد قرابة نصف ساعة من المشي السريع.. كان ضوء الشمس حينها قد بدأ بالظهور على استحياء..

طرقَ الباب طرقات متتالية وسريعة، وكنت التفت يميناً ويساراً..

حتى فتحَ الباب شابٌ في الثلاثينات من عمره..

فرحَ كثيراً بمشاهدة قاسم..

نظرَ إليّ مستغرباً!.. ثم أخبرهُ قاسم أنّني معه.. فرحَّب بنا، ثم أدخلنا إلى مجلس الرجال.. كانت الصدمة!

العم فاضل يجلس بجانب رجل كبير في السن، يبدو أنّه هو العم سليم.. رجل سمين، تغطي وجهه لحية بيضاء قصيرة..

تتدلى فوق كتفه الأيمن غترة حمراء.. يضعُ نظّارة طبية ثبّتها في آخر طرف أنفه الكبير..

لم يصدّق العم فاضل أنّ قاسماً يقف أمامه..

ولم يستوعب قاسم أنّ عمّه مازالَ حيّاً.. فتلقّفه بحضنه بعدما اندفعَ إليه.. ثم سألهُ العم فاضل وهو يتحسس رأسه غير مصدق:

- متى عدتَ؟ وكيف علمتَ أنني هنا؟

- أخبرني ما الذي حصلَ أولاً.. أين خالتي سميرة؟

سادتْ حالة من الصمت.. تبِعها تشكّل الحزن على ملامحه..

ممّا جعلني أنا وقاسم نصابُ بالرهبة وبالذهول..

نعم، لقد توفيت الخالة سميرة حرقاً، وتفحّمت جثتها!

حاولَ أن ينقذها، لكنّ النيران لم تترك له فرصة كما يقول..

فاختارَ الهرب لوحده من النافذة، من دون أن ينتبه إليه أحد!!

هل يُعقل أنَّ ما أعيشه من أحداث في هذه اللحظة.. حقيقة؟

لا أصدق أنّ تلك المرأة الطيبة جداً، والتي عوّضتني عن الكثير من الحنان والعاطفة التي أفتقدها، قد

كانت نهايتُها بهذا الشكل!

للأسف! الموت هو الحقيقة الوحيدة وسط كل هذا الزيف..

أين العدالة هنا؟ هل تستحق ذاكرتي أن تستقبل حدثاً جديداً كهذا؟

وقبل أن أنهار بالبكاء على روحها الطيبة..

نظرَ إليّ العم فاضل بغضب كبير جداً.. ثم صرخَ صرخة قوية:

- ماذا تفعلينَ هنا؟ أنتِ السبب في كل شيء..

ثم تقدّم نحوي كي يطردني إلى الخارج، لولا تدخّل صديقه العم سليم طالباً منه الهدوء مردداً:

- هي طفلة لا ذنبَ لها يا فاضل.. اضبط أعصابكَ.

- كنتُ أعلم أنّ وجودها بيننا، لن يجلب لنا سوى الكوارث.

كوارث!!

ما الذي يقوله العم فاضل؟.. ماذا فعلتُ لهم؟!

نظرتُ إلى قاسم، ووجدتُ الدموع تنهمر من عينيه

دون حركة..

كانَ محبطاً جداً.. متألماً حتى أقصى درجة..

أخذ بيدي ذلك الشاب الذي استقبلنا عند الباب في البداية..

ثم أدخلني إلى والدته وأخواته.. وطلب منهنّ أن يعتنينَ بي..

أجلسنَني، وقدّمنَ لي الماء.. ولكنّ دموعي كانت أكثر ما يلتقطه لساني حينها.. بكيتُ على الخالة سميرة حتى تشقّق حلقي..

البكاء لا يعيدُ الأموات.. لكنّه يخبر أرواحهم صدقاً أنّنا فقدناهم..

ما هذا الذي أعيشه الآن؟

لماذا تصرّ الأقدار أن تسجل في ذاكراتي الصغيرة أبشع الذكريات؟

لا أريدُ منها شيئاً.. سوى أن تترك لي أيّ شيء جميل حتى يكتمل؟

لقد عشتُ أياماً جميلة جداً مع الخالة سميرة..

وودعتُها بكل صدق..

تاركة خلفي ذكرى حسنة وسط كل هذا السوء الذي قابلتهُ في طريقي.. قبل أن أعود مجبرة بسبب ظرف لم أتوقع حدوثه أبداً..

وكأنّه حدثَ خصيصاً في ذلك التوقيت؛ كي يرغمني على مشاهدة انهيار الذكرى الجميلة الوحيدة، وتحويلها إلى ذكرى مؤلمة!

كنتُ أتساءل كلما تجرعتُ مرارة جديدة: هل خُلقت للعذاب؟

كيفَ لي أن أزيل كل هذه الذكريات التي غُذيّت بها ذاكرتي؟

صور القتل.. الدماء.. التعذيب.. الانتهاكات..

أشعرُ أحياناً أنَّ رأسي سوف ينفجر من حجم الذكريات الزائدة!

بعدها بساعتين تقريباً، أدخلوني لمقابلة العم فاضل مرة أخرى وأخبرني أنّنا سوف نبقى هنا جميعاً لفترة من الوقت..

كي نبتعد عن الأنظار.. حتى عزاء الخالة سميرة..

لن يُقام لها تجنّباً للفت الأنظار.. وبعدها لكلّ حادث حديث..

تجنّباً للفت الأنظار!.. لماذا كل هذه الاحترازات؟

تعبتُ كثيراً لأعرف السبب.. وللأسف، ليتني لم أعرف!

إنَّ أفراد تنظيم القاعدة قد توصلوا إلى المكان الذي هربنا إليه أنا وقاسم.. ظلّوا يبحثون عنّا باهتمام؛ حتى لا ينكشف سرّهم من خلالنا.. وعندما وصلوا، قاموا باقتحام المنزل وتفتيشه..

ولم يعثروا علينا.. من حسن حظّنا أننا غادرنا قبل وصولهم!

لم يعطِهم العم فاضل حينها أيّة إجابة مفيدة رغم اعتدائهم عليه..

وعليه، قرروا حبسهُ هو وزوجته، ثم أحرقوا المنزل بكل بساطة!

بكل سهولة قرروا قتل شخصيْن حرقاً!!

نجا العم فاضل بأعجوبة.. وتوفيت للأسف زوجته

الخالة سميرة..

الحقيقة.. حتى عودتنا هذه لم تكن خياراً آمناً..

لأنّ ذلك قد يعرّض منزل العم سليم إلى الاقتحام المباغت أيضاً..

وقد تواجهُ عائلته المصير المرعب نفسه!

لذلك كان هذا كل ما يقلقهم، طوال فترة بقائنا في منزلهم..

في تلك الفترة القصيرة..

كنتُ أنام في الصالة الصغيرة الداخلية..

فلم تكن هناك غرف كافية.. وكنتُ أرفض أن أنام بجانب نساء المنزل على الرغم من أنهنّ قد عرضنَ عليّ ذلك مراراً وتكراراً..

كنتُ أتحرّج منهنّ قليلاً.. وأمّا قاسم وعمّه فقد كانا ينامان في مجلس الرجال..

في تلك الفترة.. تعرفتُ على فتيات المنزل ووالدتهنّ معرفة سطحية.. تجنبتُ خلالها متعمدةً ألّا أخوض في أيّة تفاصيل.. خصوصاً أنّ أحوالي النفسية

كانت سيئة جداً بسبب ما حدث.. فالحزن كان مخيّماً على وجهي، بسبب وفاة الخالة سميرة.. ولم يكن هناك ما يشجّع على التجاوب مع أيّ تعاطف عفوي يصدر منهنّ.. خصوصاً أنني لم أتلقَّ أيَّ سؤال منهنّ منذ البداية، سوى ذلك السؤال المعتاد المزعج:

- هل أنتِ من السعودية فعلاً؟

كنتُ أستغلّ عطب لساني، وأتعمّد إظهار تلك العاهة هرباً من التعمق في الإجابات، أو في الأحاديث المطولة التي تتعبني بلا فائدة.. أصبحتُ أظهر عجزي بعد أن كنتُ أتجنب فعل ذلك.. كنتُ لا أنتظر سوى المصير الجديد فقط.

لاحظت الوالدة أنني أتألم بين فترة وأخرى.. خصوصاً بعدما خرجتُ ذلك اليوم من دورة المياه، بعد أن فرغتُ من الاستحمام وتبديل ملابسي بالملابس التي قدّمتها لي سابقاً الخالة سميرة قبل وفاتها..

سألَتَني الوالدة عن السبب، وأخبرتُها عن الجرح الذي خلّفته عملية سرقة عضو من داخل جسدي، والذي لم أعلم أيّ عضو هوَ بالتحديد؟ حتى هذه اللحظة!

تخيّلوا مجرد تخيّل أن تفقدوا شيئاً من داخل

أجسامكم وأنتم نائمون.. ثم تستيقظون ولا تعرفون ما هو؟ وتواصلون بعدها حياتكم!

طلبتْ المرأة مني كشف جسدي.. وصُعقت من شكل الخياطة والجرح.. كان منظراً سيئاً بالنسبة لها.. الحقيقة لم أكن أحبّ رؤيته أبداً.. فبادرتْ مشكورة إلى تضميدهِ، ووضع القماش المناسب فوقهُ طوال فترة بقائي بينهم..

كانت بعض الأمور الجميلة حاضرة خلال فترة إقامتنا عندهم..

مرة من المرات.. قدّموا لنا وجبة إفطار لذيذة جداً..

تشبه وجبة العريكة(10) التي لطالما أكلتُها في منزلنا بجدة..

من صنع والدتي التي أفتقدُها بكل ما تعنيه الكلمة..

عرفتُ رائحتها فور تسلّلها إلى أنفي.. ولاحظوا فرحتي المبالغة فأخبرتُهم عن السبب.. كانوا سعيدين جداً بوجودي بينهم..

هناك روائح يُبقيها الزمن.. بالرغم من تزاحم

الذكريات المؤلمة..

إنّها مثل عطر جميل يحمل ذكرى معينة.. يبقى أثره حاضراً حتى وإن أصبحت الذكرى من الماضي البعيد..

ثمّة أمور تملكها وحدكَ.. لكنّها هي ما تتحكم بك..

كالذاكرة مثلاً.. تحفظ لك ما تريد.. وتعيدهُ إليكَ متى أرادت!

المفاجآت..

لا تخبركَ مسبقاً عن موعد حدوثها!

بقينا قرابة الأسبوعين على هذا الحال..

والبقاء أكثر من ذلك في المكان نفسه يعني الخطر حتماً..

لذا فقد حضرَت ذلك اليوم.. مغامرة جديدة غير متوقعة أبداً!

بعد صلاة العصر بساعة تقريباً..

أدخلتْني زوجة العم سليم إلى المجلس، حيث كان موجوداً هو وابنه والعم فاضل وقاسم.. وأجلستني بجانبها في بداية المدخل..

بينما كان الرجال يتصدرون صدر المجلس الذي كان صغيراً..

كان الصمت مخيّماً لدقائق.. فكسرَ العم فاضل ذلك الهدوء قائلاً:

- يجب أن نغادر إلى صعدة.. ونبقى فيها حتى تهدأ الأمور.

صمتَ قليلاً، ثم نظر إليّ، وقال وهو متردد:

- وصلتنا أخبار مؤكدة بأنّ هناك رجل سعودي يبحث في صعدة منذ أسابيع عن ابنته الضائعة.

هبوط ضغط حادّ، أصابني وجعلني أفقد السيطرة تماماً على مشاعري.. هواء حار جداً تسرَّبَ من مسامات جسدي كله..

لم أصدق ما سمعتهُ!.. ولم أقوَ على طرح أيّ سؤال..

قوة الخبر.. جعلتني مصدومة.. غير مستوعبة إطلاقاً لما أسمع.

صرختْ زوجة العم سليم من الفرحة، وضمّتني إلى صدرها وسط ابتساماتهم كلهم، ما عدا العم فاضل الذي كان متوتراً جداً..

شعرتُ بنبضات قلبي تكاد تقفز من تحت أظافر أصابعي!

من هول الصدمة؛ أحياناً يكون الصمت هو قمّة البلاغة في التعبير صدمة حقيقية، عبّرتُ عنها بالدموع..

هل ما سمعتهُ حقيقة؟.. قطعاً هذا والدي أتى للبحث عني!!

في هذه اللحظة.. كنتُ في قمة انفصام المشاعر..

أبكي صمتاً من الداخل، وارتعد فرحاً ممزوجاً بالخوف..

لا، ولم، ولن أفهم تلك المشاعر التي اكتسحتْ نفسي حينها..

شعرتُ أنّ فشلي في الوصول إلى المركز الحدودي في بلادي..

والذي أغضبَني وأحبطني حينها.. كانَ خيراً حقيقياً بالنسبة لي..

وجدتُ نفسي أطلب منهم ورقة وقلماً، وأنا في قمة ارتباكي..

وكانوا يطلبون مني الصبر والتريث..

وفعلاً أحضروا لي ما طلبتُ.. أخذتُ القلم كما لو أنّني أحتضن طوقَ نجاة.. ثم كتبتُ على الورقة لأول مرة منذ فترة طويلة..

اسمي الرباعي.. وتحدثتُ بصعوبة إليهم جميعاً وأنا أرتجف قائلة:

- هذا هو اسمي الحقيقي، أخبروا الرجل عنهُ، لا بد أنّه والدي.

تقدّم نحوي العم فاضل، وأخذ الورقة منّي ونظرَ إليها، ثم وضعها

في جيبه ووعدني خيراً.. وطلبَ مني الهدوء والتماسك..

تدخلتْ زوجة العم سليم وقدمت اقتراحاً.. حيث وجّهت حديثها

إليهم جميعاً.. قالت متسائلة:

- لماذا لا تسلّمونها إلى مركز الشرطة، وتطلبون منهم إحضار الشخص السعودي إلى هنا.. بدلَ ذهابكم إليه.. كي نتأكد من هويته؟

تدخّل العم فاضل قبل الجميع..

رافضاً هذه الفكرة رفضاً قاطعاً.. حيث قال:

- لا نريدُ أن نقحم الشرطة في الموضوع.. خصوصاً

أنّ الطفلة وقاسم كانا محتجزين لديهم.. قبل أن يحدث ما حدثَ لهما.. ونخشى أن يعرّضهما ذلك إلى دوامة من المشاكل.

حديث العم فاضل حديثٌ منطقيٌّ جداً.. ووجدَ تأييداً منهم..

فنحنُ في نظر الشرطة أطفالٌ مذنبون وهاربون.. أو مختطفون..

لا يهمّ المسمّى.. ما يهمّ أنّنا خرجنا من السجن بطريقة غير نظامية ومن الغباء أن نعود ونعرّض أنفسنا للمشاكل والمساءلة..

لكنّ المرأة واصلت اقتراحاتها.. وكأنّها تخشى عليّ من شيء لا أعلمهُ.. حين قدّمت اقتراحاً آخرَ غريباً عليّ.. وقالتْ:

- إذاً، سلّموها إلى السفارة السعودية.. هذا أفضل حلّ آمن لها.

لم تخطر على بالي يوماً مثل هذه الفكرة!!

ليسَ غريباً هذا الاسم.. سفارة.. لكنّني لا أفهم معناه أبداً..

لذلك لم يُثرني هذا الاقتراح أبداً.. لأنّني لا أدركُ فائدته..

هنا تدخّل العم سليم بنفسه، وطلبَ من زوجته الصمت!

قائلاً:

- لا تتحدثي في أمور لا تفقهين فيها شيئاً..

أطاعتهُ زوجته مباشرة، ولم تزد حرفاً واحداً.. وكأنّها شعرت أنّها تجاوزت حدودها بكثرة الحديث..

أخبرَني العم فاضل عن موعد تحرّكنا نحو مدينة صعدة..

سوف يكون بعد الفجر.. سوفَ يرافقنا بنفسه أنا وقاسم فقط..

لكن هذه المرة، ليس من أجل عملية تهريب بواسطة تجار الممنوعات الذين يسيطرون على مفاصل هذه التجارة هناك..

بل من أجل الوصول إلى الرجل السعودي، والتأكد من هويته..

بالفعل.. أشرقت الشمس..

وحانَ موعد تحرّكنا.. من عمران إلى صعدة..

ارتديتُ ملابسي وعباءتي وحجابي.. ثم ودّعنا عائلة العم سليم كنتُ أركب وحدي في الخلف، وفي المقدمة قاسم وعمّه الذي يقود..

وما إنْ تحرّكنا.. حتى أخرجتُ الطفلة التي ما تزال في داخلي..

كنتُ مزعجة.. بدأتُ بطرح التساؤلات التي تشغلني كثيراً..

كنتُ أسألهما عن موعد وصولنا.. وعن الوقت المستغرق للوصول سألتُهما عن المعلومات حولَ الرجل السعودي..

هل تعرّفوا على اسمه؟

هل تعرّفوا على اسم الطفلة التي يبحث عنها؟ ثم كررتُ:

- مستحيل أن تتشابه قصّتي مع قصة طفلة سعودية أخرى في اليمن.. من المؤكد أنني أنا المقصودة.. أليس كذلك؟

غضبَ مني العم فاضل، وطلبَ مني الهدوء..

وأخبرني بأنّ الصورة سوف تتضح بمجرد وصولنا إلى وجهتنا..

فلا داعي لكل هذه التساؤلات المزعجة كما يقول..

كان متوتراً جداً.. شعرتُ كما لو أنني عبءٌ كبير حطّ عليه لم يكن ينتظرهُ.. لا ألومهُ حقيقةً.. لقد فقدَ زوجته بشكل مروّع ولا يريد أن يفقد حياته بسبب طفلة لا تنتسب ولا تنتمي إليه..

كان الطريق مملاً بالنسبة لي..

عندما يتحدّث قاسم مع عمّه، لا أفهم عليهما لهجتهما السريعة..

كنتُ كالغبية بينهما.. لذلك بقيتُ أنظر إلى كل ما يمرّ من جانبي عبر النافذة.. حيث كان ضوء الشمس يزداد كلما مرّ الوقت..

استغرقنا مدة طويلة ومملّة في الطريق حتى وصلنا!

نعم لقد وصلنا إلى صعدة..

كانت الشمس قوية جداً.. وقبل المواصلة.. توقفَ

العم فاضل فجأة بالقرب من دكان بقالة صغير جداً..
ثم نزلَ من السيارة لوحده، ولم يدخل إلى الدكان!.. بل توجّه إلى الباب الجانبي..

كان خلف الدكان يوجد بيتٌ شعبي صغير..

التفتَ إليّ قاسم، وسألني:

- هل أنتِ مستعدة؟

- قليلاً.. لكنني مرعوبة بعض الشيء..

- لا تقلقي.. خسرنا الكثير.. لا جديد إن خسرنا المزيد.

- لا أقوى على تحمّل المزيد من الخسائر.

- كلنا نقول ذلك، وبعد خسارتنا نحزن قليلاً، ثم نكمل حياتنا.

إجاباته المحبطة لم تُدخل إلى قلبي سوى القلق..

لكنّها كانت منطقية بعض الشيء.. ما يهمّ أنّ الشغف مازالَ حاضراً بقوة بخصوص اللقاء بالرجل السعودي الذي يبحث عن طفلته المفقودة..

أنهى قاسم حديثه بملاحظة هامّة.. خففت عنّي بعض

الخوف الذي لم يغادرني أصلاً.. حين ابتسمَ لي وقال:

- لا تقلقي.. ما يهمّ أنّ الشخص الذي ينتظركِ سعوي الجنسية.

استغربتُ لماذا يقول ذلك!.. وعندما لاحظ تعجّبي أخبرني قائلاً:

- إن كان والدكِ.. فهذا ما نتمنّاه.. وإن كان شخصاً آخر..

لا تتركيه أبداً.. أخبريهِ عن قصتكِ، وسوف يساعدكِ على العودة.. ففي كلتا الحالتين.. أنتِ ينتظركِ الخير.

أسعدني كثيراً بهذا الحديث.. ليتهُ قاله منذ البداية..

استدارَ بجسده كاملاً، وأصبح وجهه يواجه وجهي.. ثم قال لي:

- قصتكِ كطفلة سعودية تمّ خطفها من بلادها، جعلتني أسترجع موقف شهدتهُ بنفسي عندما وجدتُ على الأراضي السعودية عندما دخلتُ مع المرحوم والدي.. حين كان يبحث عن عمل.

- موقف ذكَّرك بقصتي أنا!.. ما هو؟

- في إحدى القرى السعودية القريبة من الحدود.. حاولَ أحد الأشخاص من الجنسية الإفريقية من الذين تسللوا برفقتنا إلى الداخل.. أن يرسل طفلة أفغانية(11) إلى اليمن، بعد قامَ بخطفها من أهلها.. ولكنّه فشلَ بعد أن وقع في قبضة رجال الأمن السعودي، وأعادوا الطفلة إلى أهلها المقيمين هناك بصورة نظامية.. بعد غياب استمرَّ قرابة أسبوعين.

أرعبني ما ذكرهُ لي.. وجعلني أتأكد أنّني لستُ الطفلة الأولى ولن أكون الأخيرة.. طالما بقيَ ضعاف النفوس يتجولون في كل مكان بحثاً عن ضحاياهم من الأطفال.. أخبرني أنَّ بيع الأطفال إلى الجماعات المتطرفة أو حتى إلى عصابات التسول..

يختصر على البائع عناء جمع المال وذلّ الغربة..

كم هو شنيع أن تُنهي معاناتكَ.. على حساب بداية معاناة الآخرين!

قطعَ حديثنا عودة العم فاضل إلى السيارة.. حيث كان برفقته رجل يبدو أنّه صديقه.. فتحَ الباب من جهة قاسم، وطلب منه النزول.. ثم حدّثه بصرامة:

- سوف تبقى يا قاسم في هذا المنزل برفقة هذا الرجل إلى أن أعودَ إليك بعد ساعتين على أقل تقدير.

قاسم لن يرافقنا!

حاولَ إقناع عمّه بمرافقتنا.. لكنّه كان مصرّاً على موقفه، ورافضاً لموقف قاسم.. فقد كانت حجّته أنّ ذلك لصالحنا من الناحية الأمنية.. حيث لا يرغب أن يراهُ أحد برفقته، ويكفيه المخاطرة والمجيء معي كما يقول!

وبالفعل.. نزلَ قاسم مجبراً، وهو غير مقتنع بهذا القرار..

شعرتُ بأنّني فقدتُ شيئاً من الأمان بعدما نزلَ من السيارة..

كان وجوده معي طيلة الفترة الماضية يُضفي عليّ بعض الاطمئنان حتى وإن لم نكن نتحدث كثيراً.. أتمنّى أن تسير الأمور بسلاسة..

ودَّعنا بعضنا من خلف زجاج السيارة وداعاً لم أتقبّله..

وبقيتُ أنظر إليه بعد أن تحركت السيارة حتى ابتعدنا

تماماً وتلاشت صورته.. لكنّه حتماً لن يتلاشى من ذاكرتي..

لم أحسبْ حساب هذا الألم الذي سوفَ يخلّفه وداع قاسم..

كل من يعيش معي بعض الذكريات.. يُتعبني وداعهُ القسري..

ولكنّها الحياة.. لا شيء يدوم سوى الذكريات التي تفرض نفسها..

لقد كنتُ متماسكة.. فهذا الوداع سوف يعقبهُ لقاء بوالدي..

حلمٌ سعيتُ بالوصول إليه.. ولم أتوقع أنّه سوف يتحقق صدفة..

بعد مدة قصيرة.. أصبحنا في منتصف شوارع صعدة تقريباً..

أوقفَ العم فاضل السيارة جانباً، ثم أطفأ المحرك.. والتفتَ إليّ..

ثم قالَ من دون أن ينظر إلى عينيّ:

- إيمان.. سوف يأتي رجل الآن؛ كي يأخذكِ إلى الشخص السعودي الذي يبحث عن طفلته.. ومن المرجح أنّها أنتِ..

إن كان والدكِ فذلك خير.. وإن لم يكن فعليكِ مساعدة نفسكِ.

ما الذي يقوله؟!

كيفَ له أن يسلّمني إلى شخص غريب لا أعرفه؟

بدأ الخوف يدبُّ في قلبي الذي لم يتعود على غيرهِ للأسف..

سألتُه بكل عفوية:

- ولماذا لا ترافقني يا عمّ فاضل.. أخشى من المجهول.

- أرجوكِ يا بنتي.. صدّقيني.. بقاؤكِ معنا يعني موتنا جميعاً حتى بقاء قاسم.. لكنّه ابن أخي، ولا يمكنني الاستغناء عنه.

سادت لحظات من الصمت بيننا..

لم يكن يتخللها سوى أصوات السيارات التي تمر من

جانبنا..

الحقيقة.. بكيتُ قليلاً.. ولم يعرني أيّ اهتمام..

نظرَ إلى المرآة الأمامية المعلقة في السيارة.. ثم ترجّلَ منها..

نظرتُ إلى الخلف.. كانت سيارة صغيرة قد توقفت خلفنا..

ترجّلَ منها رجلٌ آخر.. كان أسمر اللون.. متوسط القامة..

لا يرتدي عمامة، ولا أيّ شيء على رأسه.. حليق اللحية..

يرتدي قميصاً أسودَ وإزاراً أخضرَ ينتهي عند منتصف ساقيه..

صافحا بعضهما بحرارة.. ثم تحدثا قرابة نصف الساعة!

إلى أن عادَ العم فاضل، ثم طلبَ مني النزول وقدّم الرجل لي:

- هذا صديقي أبو الحسين.. شخص طيب وأمين

جداً..

سوف يوصلكِ إلى الرجل السعودي، وسوف يقوم باللازم في حال حدوث أيّ مستجد.. لذلك لا تقلقي أبداً وتفاءلي خيراً.. أتمنّى أن تعودي إلى أهلكِ وتنتهي معاناتكِ.

وجدتُ نفسي أتشبث باليد اليمنى للعم فاضل..

محاولةً أن أقنعهُ بالتراجع.. أو على الأقل أن يقبل مرافقتي..

لكنّه كان مصرّاً على قراره.. فالاحتياطات الأمنية هي الأهم كي يحافظ على سلامتي.. والأهم سلامته هو!

استفزّه بكائي.. فتركَ يدي بقوة، وتوجّه نحو سيارته بسرعة..

وغادر بكل بساطة!!

الثقة العمياء في غير محلّها.. قد تجلب لك أبشع أنواع الخيبات!

نظرتُ إلى أبي الحسين.. كان ينتظرني مبتسماً..

فتحَ لي باب السيارة، وهو يقول بكل هدوء:

- لا تقلقي يا صغيرة.. أمامكِ فرصة لا يجدها من هم بعمركِ.

ثم طلبَ مني الصعود.. ولم يكن أمامي خيار سوى ذلك..

صعدتُ وأنا أرتجف قليلاً.. فمهما خضتُ من تجارب مخيفة إلا أنّه لا يمكنني الانتصار على هذا النوع من الارتجاف..

فما زلتُ أملكُ قلب طفلة.. حتى وإنْ عانى أو تجرّع القساوة..

انطلقنا كما هو ديدنُ كل انطلاقاتي.. نحوَ المجهول..

اللعنة على هذا الطريق المجهول، الذي لا يريد أن ينتهي..

وصلنا بعد قرابة ربع ساعة إلى وجهتنا..

لم أستوعب.. لم أصدق ما الذي أشاهده الآن!

مركز للشرطة اليمنية!!

أخبرتهُ أنْ يأخذ حذره كيلا يشاهدنا أحد..

فقد أكون مطلوبة لديهم؛ بسبب هروبي الذي أُجبرتُ عليه..

لكنّه طلبَ مني الهدوء، ثم قال:

- العم فاضل طلبَ مني ذلك.. ألم يخبركِ أن تثقي بي؟

حينها.. حضرتْ فكرة خطيرة إلى ذهني بشكل سريع..

أن أفتح باب السيارة وأهرب من هذا المجنون الذي قد يُعيدني إلى السجن مرة أخرى.. فقد أواجهُ حكماً كارثياً بسبب جريمة قتل لم أرتكبها!

وقبل أن تكتمل فكرتي هذه.. تحدّث إليّ بكل حزم:

- الشخص الذي يبحثُ عنكِ ينتظركِ في الداخل.. أخبرناه بقدومكِ، وعليكِ التعرف عليه، فقد يكون والدكِ وتنتهي معاناتكِ كلها.

هذه الجملة أعادتْ في مخيلتي جميع حساباتي..

خصوصاً أنّ المجازفة حاضرة في كلا الحالتين..

الهروب أو الدخول..

الهروب في هذا التوقيت، قد يكون هو القرار الأخطر..

قد يقتل الأمل بالعودة.. وأمّا الدخول.. فقد يغلق كل هذا الملف!

تشكّلت ملامح والدي أمامي.. وتخيلتُ فعلاً مشهداً لطالما تمنّيته..

لو أنّني أجدهُ ينتظرني.. أريد أن أرتمي في حضنه..

وألّا أتحدث عن أي شيء..

لقد رضختُ لهذه المخاطرة مع هذا الرجل الذي لا أعرفُ عنه شيئاً.. سوى أنّه صديق العم فاضل، الذي تخلّى عني حباً بنفسه..

دخلنا.. كان مركزَ شرطة قديماً بعض الشيء..

ومزدحماً في ممراته المختنقة.. كل مَن كان يمر وجدتهُ ينظر إليّ..

فكنتُ أتبعُ أبا الحسين بسرعة، وأقترب منه جداً من فرط الخوف..

حتى دخلنا إلى غرفة.. كان فيها مكتب خشبي، وخلف هذا المكتب رجل أمن يمني.. كُتبَ على مكتبه اسمه، وقبله تصنيف رتبته..

كان ضابطاً.. ومن حوله بعض الأشخاص المراجعين..

عرّفَ بي أبو الحسين.. فعرَفنا الضابط مباشرة..

وطلب منّا الجلوس مرحباً..

كنتُ مرتبكة جداً.. بدأتُ أتصبب عرقاً، وأصابعي تتشابك ببعضها والكثير من التساؤلات الداخلية التي لا تتوقف..

لماذا نحنُ هنا؟.. ماذا ينتظرني؟.. هل سيظهر أبي أمامي فعلاً؟

وبعد دقائق من الصبر.. تحدّث الضابط وهو ينظر إليّ مبتسماً:

- حادثة اعتراض مركبة الأطفال وتهريبهم كانت شراً لهم لكنّها خيرٌ حقيقيٌّ لكِ.. يكفي أنكِ ما زلتِ على قيد الحياة.

هذا الحديث خلقَ في داخلي نوعاً من الأمان..

تأكدتُ أنهم يعرفون الحقيقة.. فأنا لم أهرب باختياري بل مجبرة..

وعليه لن أُعاقبَ على ما حدث من قتل للحرس، وتهريب للأطفال..

ثم فتحَ ملفّاً من الملفاتِ التي كانت متناثرة على مكتبه..

وذكرَ لي اسمي كاملاً.. اسمي المزور، وليس الحقيقي!

وقال بعد ذلك شيئاً كادَ أن يخلع قلبي خلعاً من مكانه!!

تحدّث مبشراً لي.. ولا يعلم أنّه يزفُّ إليَّ الشر كله حين قال:

- حتى الجريمة التي كنتِ ستدفعين حياتكِ ثمناً لها، لم تعد موجودة في سجلّكِ.. لقد نجا زوجكِ بأعجوبة من الموت.

ولم يُكمل حديثه حتى طرقَ الباب أحدهم، وألقى السلام..

كانت الصدمة الحقيقية والكبرى بكل ما تعنيه الكلمة!

كان يقف أمامي بشحمه ولحمه.. إنّه والد يحيى!!

(12)

لم أعشْ رعباً في حياتي كالذي عشتهُ في هذه اللحظة..

ركضتُ خلف الضابط كما لو أنني أهربُ من الموت..

وبدأتُ أصرخ وأبكي وأنفاسي تكاد تختفي نهائياً..

كنتُ أشعر أنّني أختنق.. كنتُ أرتعد.. صوت بكائي لا يظهر بسبب قوة اندفاع صوتي.. لقد تبولتُ في ملابسي لا إرادياً! ممّا جعل الضابط يقف فزعاً من ذلك، ويصرخ عليّ طالباً مني الابتعاد وكذلك الهدوء.. ولكنني لم أكن مدركة لأي شيء..

كان يحاول إبعادي، وكنتُ أتشبث بقدمه بكلتا يديّ..

وأرجوهُ وأتوسل إليه أن ينقذني..

كل هذا وسط نظرات والد يحيى الذي كان ينظر إليّ

مبتسماً!

لم أكن أقوى على الحديث بشكل طبيعي.. فالموقف أكبر رعباً من أن يُشرح.. شعرتُ أنّ الموت قد شارفَ على اقتلاعي من هذه الدنيا التي لم ترحمني يوماً.. ليتهُ فعلَ ذلك فعلاً وأخذ روحي..

دخلَ أحد الأشخاص كي ينظّف المكان الذي أفسدته..

ولم ينقطع بكائي العالي جداً.. ممّا تسبَّب في تجمّع البعض عند باب مكتب الضابط.. قبل أن يطلب منهم الانصراف فوراً ويأمر بإغلاق الباب.. طلبَ مني الهدوء، وقدّم لي الماء البارد..

ولم أكن أقوى على فعل شيء سوى البكاء الذي يفقدني أنفاسي..

تحدّث الضابط إليّ بعد أن وضعَ يديه على كتفيّ المرتجفيْن:

- أعترف لنا أنكِ لم تحاولي قتله، وبذلك أنقذكِ من العقوبة، وبصفتهِ زوجكِ الشرعي كما تقول المستندات.. هو يرغب الآن باسترجاعكِ.

هنا جنّ جنوني أضعافاً مضاعفة..

آخر مصير كنتُ أتوقع أنّه ينتظرني بعد مشقّات طريقي الوعر..

هو أن أعودَ إلى مرافقة والد يحيى!

لم أكرهْ عطب لساني أكثر من هذه المرة.. عجزتُ بسبب الرهبة عن أن أتفوّه ولو بكلمة واحدة سليمة.. كنتُ أتحدث ولا أحد يفهمني كلّ من كان يشاهد المشهد المأساوي.. يرى بأنّ الحق في صف والد يحيى.. فهو زوجي وولي أمري، وأنا لستُ سوى مجرد زوجة من الجنسية الأفغانية كما تقول الإثباتات.. ولا راعيَ لي سواه..

التفتتُّ نحو أبي الحسين لعلّه يتدخل كي ينقذني من هذا الموقف..

فكانت صدمة أخرى تتلقّفني وسط صدماتي المتلاحقة..

وجدتُ مكانه فارغاً!

لا أثرَ له تماماً.. لقد غادر بكل هدوء، ودون أن ألاحظ ذلك!!

أحياناً.. نتجاهلُ حقيقتهم، ثم تصدمنا بشاعة أفعالهم..

تماماً كمَن تذوّق جمرة.. ثم صدمهُ احتراق لسانه!

يبدو أنّني قد وقعتُ في الفخ.. واقعة احتيال استغلوا فيها معاناتي(13) كانت لعبة قذرة استخدمَ فيها والد يحيى عواطفنا المندفعة..

حيث دخل إلينا من خلال ثغرة ذكية جداً.. ألا وهي..

محاولة معرفة من أعيشُ عندهم.. وذلك باستخدام جنسيتي!

لذا استخدمَ خبراً مثيراً كبحث شخص سعودي عن طفلته..

لأنهُ خبر ملفت، وحتماً سوف ينتشر..

وسوف يجعل من أعيشُ عندهم يتفاعلون مع الخبر من أجلي.. وعليه، سوف يوصلونني بأنفسهم إليه دون مجهود منه بالبحث..

حينها يضرب ضربتهُ باستخدام أوراقي الثبوتية غير الحقيقية أصلاً!.. يا لخسّة هذا المسخ الذي من

المحال أن يكون بشراً!

كيفَ للعمّ فاضل أن يستجيب إلى أمر كهذا دون أن يتحقق من هوية الشخص؟

أم أنّه كان على معرفة بالأمر، وقرّر أن يتخلص منّي دون مشاكل؟

رأسي يكاد ينفجر.. لم أحصل على أيّة إجابة منطقية..

وقّع والد يحيى على بعض الأوراق..

ثم تقدّم نحوي، ومدّ يده ممسكاً بي من معصم يدي اليمنى..

أحياناً.. اليد التي تمتدُ إليك وأنت تقاوم الغرق، ليس شرطاً أنّها تريد إنقاذك من الموت.. قد ترغب في إنهاء جميع محاولاتكَ للنجاة!

طلبَ منه الضابط..

وبعض مَن وُجدوا في الغرفة.. أن يترفّق بي قليلاً..

وبكل بساطة، سحبني سحباً والجميع يشاهدونني ويستمعون إلى صراخي واستجدائي.. لكن لا مجال

للتدخل..

فأنا في نظرهم زوجة متمردة ليس لها سوى بيت زوجها الشرعي!

أركبني بكل سهولة في المقعد الأمامي في سيارته..

على الرغم من مقاومتي القصوى في نظري.. والتافهة جداً في نظره.. وركبَ بجانبي، ثم انطلقَ بالسيارة وسط صراخي القوي الجنوني غير المتوقف.. فقرَّر التوقف جانباً ثم ضربني!

وأخرجَ علبة رذاذ وهو غاضب.. ورشَّ منها بسرعة على وجهي..

ولم أتمكن من المقاومة أبداً.. حتى شعرتُ أنني أفقد قواي..

ذلك الشعور اللعين الذي أعرفهُ جيداً.. حتماً إنّهُ مخدِّر..

ولا أذكر بعدها تفاصيل عن أيّ شيء..

سوى أنّني حلمت حلماً جميلاً!

نعم لقد حلمتُ بأختي التي أفتقدها.. لأول مرة يحدث هذا معي..

كانت ترتدي حفاظة على الرغم من أنّها لم تكن ترتديها لتجازوها ذلك الأمر.. كانت تقف مبتسمة، وهي تحمل لعبة جميلة لأول مرة أشاهدها.. عبارة عن سيارة حمراء صغيرة..

وتحدّثني وهي تبتسم قائلة:

- أريدُ أن أعيش طفولة أخينا الجديد.. ما رأيكِ هل أشبههُ؟

أخ جديد!.. ليس لدينا أخ كما تعلمون!!

أذكر أنّني لم أجبْ عليها بأيّة كلمة.. لكنّني شعرتُ كما لو أنّني لستُ مستغربة من ذلك.. وكنتُ سعيدة جداً بما عايشتهُ في الحلم..

ربما قد رُزقنا بمولود جديد، وهذه رسالة تخبرني فيها بحدوث ذلك!

ربما.. هوَ حلم غريب ولطيف، وتمنيتُ أن يستمر ولا ينتهي..

لكنني استيقظتُ للأسف.. ووجدتُ نفسي ملقاة على

الأرض..

والقيود الحديدية تكبّل يديّ ورجليّ جميعاً!

لم أعد أقوى على الصراخ، ولا حتى على البكاء..

لذلك كنتُ صامتة.. وكنتُ أتأمل تفاصيل المكان السيء فقط..

لا أعلمُ إن كان ذلك إحباطاً.. أو بسبب تأثير المخدِّر عليّ..

للأسف.. ما كنتُ عليه حقيقة محبطة، لا أقوى على استيعابها!

فائضُ الألم الذي لا يريد أن يتوقف!

بقيتُ على هذا الحال أكثر من ساعتين..

حتى شعرتُ بتنمّل أطرافي.. وبسبب ذلك بدأت بالصراخ..

حتى استجابَ لي.. فتح الباب بقوة، وأرعبني بتصرفه هذا..

نظر إليّ وهو يضحك بعد أن تقدّم خطوتين.. ثم قال بكل حقارة:

- أهلاً بكِ مرة أخرى تحت ولايتي يا زوجتي العزيزة.

لاحظتُ تحرك قدمين صغيرتين من خلفه..

ظهرتا على استحياء.. حتى اكتملت صورة صاحبها تماماً..

كانَ ينظر إليّ مبتسماً ويداه خلفه..

لقد كان يحيى!

لا أصدق أنّه يقف أمامي مرة أخرى.. شعرتُ ببعض الدوار..

أقسمُ لكم إنَّ مشاهدتي له؛ جعلتني أنسى حجم مصيبتي حينها..

وجدتُ نفسي أبتسم لا إرادياً وأكرّر اسمه.. كانت الفرحة التي انبثقت من داخلي فجأة عند رؤيته.. لا تعكس الحزن الذي كان يتملّكني.. كما لو أنّه ضوء شمس انفجرَ من وسط ظلام دامس..

فوقوفهُ أمامي في هذا التوقيت غير المتوقع أبداً..

خفّف عليّ ما أنا عليه من بؤس حال..

وهذه هي عادته منذ أن عرفته..

منذ أن كنّا سوياً في مدينتي جدة ثم أفغانستان ووصولاً إلى اليمن..

تأكدتُ حينها أننا بخير.. وأننا نجوْنا من مصير قضية القتل..

بعدما نجا والدهُ الذي يرفضُ دائماً أن يقع أو حتى أن يموت!

تدخَّل في الحديث كي يجدد حقارتهُ التي لا حدود لها..

ويغتال شعور الفرحة الذي لم يجعلهُ يأخذ حقّه في الانتشار على مساحة روحي المنهكة..

قامَ بسحب يديّ يحيى من خلف ظهره.. ورفعهما أمامي عالياً وهو يقول ضاحكاً:

- مفاجأة!.. لقد قطعتُ كفّه الآخر حتى لا يطلق النار على والده مرة أخرى.. يحيى الآن أصبح بلا كفّين.

ثم تركهُ يسقط على الأرض، وهو يضحك قبل أن يقترب منّي ويشدني من شعري بقوة، وهو يحدثني ورائحة فمه لا تطاق:

- أقسم لكِ إنني سوف أقطع رقبتكِ الجميلة إذا سوّلت لكِ نفسكِ فعل أي شيء يُغضبني.. لا مجال للأخطاء بعد اليوم.

ثم تركني أبكي وأنا أرتجف رعباً..

وبداخلي الكثير من الإحساس بالغثيان الذي اندفع مرة واحدة..

بعدما رأيتُ يديّ يحيى من دون كفّيه.. منظر لا يُحتمل أبداً..

غادرَ بعد أن أغلقَ علينا الباب، وتركنا سوياً..

اقتربَ مني يحيى محاولاً تهدئتي.. كان يتظاهر بالصمود..

طلبَ مني الهدوء وهو يبتسم وينظر إلى عينيّ..

فقام بمسح دموعي بيديه العاجزتين بكل لطف.. وهو يقول:

- ألم تملّي من البكاء يا إيمان؟

أجبتهُ متحدية صعوبة النطق، ومقاومة لتتابع الدموع:

- وهل أملكُ هنا غير البكاء؟

- نعم.. تملكينَ كفّين سليمتين مكبّلتين (قالها ضاحكاً)

صدمتني إجابتهُ.. يبدو أنّه يسخر من حالته المتردية..

هذا النوع من السخرية هو أقسى أنواع العجز.. ولا يأتي إلا بعد أن يفقد الشخص الأمل في كل شيء.. فيجد نفسه يسخر من نفسه.. وكان يحيى كذلك.. حدّثني بعد أن عاد إلى الوراء:

- لا تحزني على حالي أبداً.. صدّقيني أنا الآن أكثر راحة.. فلم أعد أنفع لتنفيذ أيّة أعمال إجرامية.. أليست هذه نعمة؟

طريقة تفكير جديدة تعلمتُها منه..

أن ترى الخير في مصائبكَ وخساراتك.. الوجه الآخر لها..

لكن مثل هذه النظرة.. لا يقوى على تسليطها سوى مَن عاش الكثير من التجارب المؤلمة لقلبه ولذاكرته..

بعدها.. قد ينجحُ في التوصل إلى مثل هذه القناعة النادرة..

والحقيقة أنَّ أغلب من يصل إليها، لا يصل بمحض إرادته!

في هذا العالم هناك مَن يعيشون على الرغم من أحزانهم..

يحيى كان أحدهم.. ها هو يبتسم على الرغم من فقده لكفّيه!

لديه أبٌ.. لا يعرف عن الأبوّة شيئاً..

يعيش معه.. ويصبّح كل يوم عليه.. ومع كل هذا..

استطاع أن يكمل حياته رغماً عن الشقاء..

يبدو أنَّ ذروة الحزن.. أن تعيشهُ حتى تتمكّن منه!

سألتهُ عن زوجة والده الحقيرة، التي كانت ترغب في استغلال الحادثة لصالحها.. فأخبرني أنّه طلقها وطردها من المنزل بعد أن أوسعها ضرباً، وجرّدها من كل حقوقها..

أخبرني أيضاً أنّه بعد خروجه من السجن، لم يصدق أبداً أنَّ والده قد نجا من الموت، إلا بعد أن شاهده ينتظرهُ عند الضابط.. ولطالما كان يتساءل عن مصيري بعد خروجه.. حيث قال:

- خفتُ عليكِ كثيراً بعدما علمتُ أن لا أثرَ لوجودكِ..

وتساءلت: هل هربتِ فعلاً؟.. أم أنَّ مكروهاً قد أصابكِ.

سألتهُ عن والدته التي هجرها والدهُ، وعن أخواته اللاتي زوَّجهنّ رغماً عنهن.. لماذا لا يذهب للعيش عند أحداهنّ؟..

أو إلى والدته بالتحديد..

أخبرني أنَّ والده لا يريد أن يخبرهُ عن أي عنوان يوصلهُ إليهنّ..

واختصرَ كل ذلك قائلاً:

- ربما ذلك خيرٌ لها.. لا أريدها أن ترى ابنها مبتورَ الكفّين.. أريدها أن تحتفظ بصورتي الطبيعية في ذاكرتها كما تركتْني.

أحزنتْني إجابته..

كلانا فقدَ والدته بطريقة أو بأخرى.. الفرق بيني وبينه..

أنّه لا يريد العودة إليها.. وأنا لا يشغلني سوى ذلك..

للأسف.. الألم يمكنهُ التحكم بالأمنيات، وبترتيب أهميتها لدينا!

واصلنا الأحاديث.. كان الحماس واضحاً علينا..

الاندفاع العفوي أثناء الحديث.. لا تجدهُ إلا مع الشخص الذي تشعر بالارتياح التام معه.. يحدث كل

هذا من دون أن تلاحظ!

وجدتُ نفسي أخبره عن تفاصيل كل ما مررتُ به..

وما كان يريحني معه.. أنّه أكثر مَن يفهم مخارج الحروف غير الواضحة أحياناً أثناء حديثي.. لا أشعر بالحرج معه إطلاقاً..

كان يستمع إليّ مصدوماً من فظاعة المغامرات التي عايشتُها..

وبعد انتهاء حديثي.. أعتذرَ لي محرجاً؛ لأنّه لا يمكنه أن يفك أغلالي.. لا يمكن أن ألومهُ فعلاً.. بل كنت ألوم نفسي كثيراً..

فأنا السبب في بتر كفّيه.. دون أن أقصد، أو يتوقع هو ذلك..

غريبة هي العلاقة التي تجمعنا!.. كيف لنا أن نلتقي رغماً عنّا في الكثير من الأماكن الواسعة جداً.. وكأنّهُ لا بشرَ غيرنا فيها..

يبدو أنّ الفضل يعود إلى الألم الذي يتلذذ في صياغة ذكرياتنا السيئة.. ويضيّق علينا مدارات الأقدار.. حتى يُهيئ لنا لقاءاتنا القسرية!

بقيتُ مكبلة بالقيود ثلاثة أيام بلياليها..

وبدأ ألم جرح موضع العملية يعود إليّ.. وبشكل مستفز..

كان ذلك السبب الرئيسي الذي يجعلني أصرخ ليلاً، ولا يمكّنني من النوم سوى بشكل متقطع.. ولم يخلق ذلك أيّ تعاطف يذكر من قِبل والد يحيى معي، والذي كان يطعمني بنفسه وجبة واحدة في اليوم.. وللأسف.. كنتُ أقضي حاجتي رغماً عنّي في مكاني!

لماذا كل هذا الغلّ تجاهي؟ ما يفعله معي أمر لا يصدق إطلاقاً..

ولولا سوء الروائح التي انتشرت في المكان؛ لجعلني أبقى فيه فترة أطول.. فقرَّر أن يفكّ قيودي مرتين في اليوم..

كي أتناول طعامي بنفسي.. وأقضي حاجتي في المكان المخصص لذلك.. وأول أمر أمرَني به.. هو أن أنظّف مكاني بنفسي من كل الأوساخ..

عندما فكَّ قيودي أول مرة.. لم أكن أقوى على التوازن..

فسقطتُّ على وجهي.. كنتُ أشعر بيديَّ كما لو أنها مفقودتان..

احتجتُ إلى ساعات، حتى بدأتُ أشعر بعودة الدماء إليّ من جديد..

وعدتهُ وأقسمتُ له إنّني لن أهرب.. وكنتُ جادة في ذلك..

حتى لا يعيد إليّ تلك القيود الحديدية اللعينة..

ولكنهُ كان كعادته.. لا ينفذ سوى ما يريده، وكأنَّ لا أحد يحدّثه..

استمريتُ على هذا الوضع المتقطع قرابة أسبوعين..

كانت أمتعُ اللحظات التي تمرّ عليّ كل يوم.. هي التي أجد فيها فرصة للحديث مع يحيى.. ولكنّها كانت لحظات قليلة..

بعد هذه المدة المتعبة جداً.. فكَّ قيودي تماماً، وكان لا يضعها حول يديَّ إلا إذا غادر المنزل فقط.. لقضاء أعماله الحقيرة طبعاً.

عندما أزالها عن يديَّ.. أعاد لي قائمة التهديدات التي لا تحمل سوى الذبح والسلخ والقطع وإلى آخره..

والحقيقة أنّه كان يرعبني ويجعلني أحسب حساب كل خطوة معه..

فما فعلهُ مع ابنه الذي من صلبه.. لن يردعهُ أيّ شيء عن تكراره معي بكل سهولة، ولأيّ سبب كان!

بقيتُ على هذا الحال، حبيسة في المنزل أصارع ألم جرحي الذي يهدأ ويعود في أوقات متباعدة متى ما أراد..

حتى انقضى من الزمن قرابة الشهرين..

للأسف.. هنا الوقت ينقضي دون أيّة قيمة تذكر..

مرّت الأيام تلو الأيام، ولا أعلم ما المصير الذي ينتظرني؟..

فبعد أن ارتفعَ سقف الأمل بالعثور على والدي ثم العودة برفقته..

هُدمَ كل هذا السقف الذي اتضح بأنهُ ليس سوى وهم وسراب..

قرّر والد يحيى قراره الذي أخشاه.. قرار عودتي إلى العمل!

إلى استغلالي كطفلة مرة أخرى.. يتقبّلها عموم الناس بحسن نية..

خصوصاً أنَّ ابنه يحيى قد انعدمت فائدته كثيراً بسبب إعاقته..

أذكرُ ذلك اليوم جيداً..

كان يوم الجمعة.. بعد صلاة الفجر.. قرابة الساعة السادسة..

أيقظنا، وطلب منّا أن نتجهز للخروج.. وفعلاً كان ذلك..

لم آخذ حصتي الكاملة من النوم للأسف..

لكن من الصعب كسر الأوامر التي كان يفرضها ذلك المعتوه..

خلال ساعة، وُجدنا جميعاً في سيارته..

تحركَنا وكالعادة لا أدري إلى أين؟.. أجمل ما كان يحمله لي هذا المشوار.. هو الصباح اللطيف الذي كان جميلاً جداً..

شعرتُ أنّ الحياة كلها تتنفس.. وكنتُ كذلك..

أحتاج إلى أنفاس الصباح.. إلى صوت العصافير التي تستيقظ وأكبر همّها أن تجد طعاماً لها أو لصغارها.. ورغم كل ذلك.. تجدها ببساطة تغرد!

مررنا بالعديد من المنازل الشعبية.. حتى ابتعدنا قليلاً..

وصلنا إلى أراضٍ شبه خالية، وليست بعيدة عن المنطقة السكنية..

كان هناك مجموعة أطفال يلعبون كرة القدم مع شروق الشمس..

تتراوح أعمارهم في اعتقادي ما بين (10 إلى 13 سنة)

كان عددهم قرابة عشرة أطفال..

أوقفَ والد يحيى السيارة بعيداً عنهم.. ثم بدأ ينظر إليهم ويُحصي عددهم بشكل غريب.. ثم نظر إلى يحيى وسأله:

- إنّهم يلعبون هنا منذ شهر.. العدد نفسه تقريباً.. هل لاحظتَ شيئاً مريباً؟.. أي تغيير ملفت؟

لم يفهم فحوى السؤال، وأجاب والده بكل عفوية:

- ألوان ملابسهم ليست الألوان السابقة نفسها!

وما إن فرغ من إجابته، حتى تلقّى ضربة مباغتة على مؤخرة رأسه، جعلت جبهته ترتطم بمقدمة السيارة!!

أفزَعني هذا التصرف غير المتوقع، وأخرجَ مني صرخة بلا شعور.. قابلها بصرخة مرتدّة طالباً منّي السكوت..

ثم قام بوصف يحيى بأبشع الأوصاف، بسبب إجابته الغبية كما كان يقول!.. ماذا كان ينتظر من طفل أن يجيبه؟

لماذا يصرّ على مخاطبة يحيى كمجرم له خبرات ورؤية إجرامية؟

ما ذنبُ يحيى إذا كانَ لا يفقه الخبث، ولا يجيد لعب دور الشر؟

كان وضعهُ بعد ارتطام جبهته وضعاً محزناً جداً..

كعادته بعد كل موقف محرج.. أجدهُ يتجنب النظر إليّ..

ويتظاهر بالنظر بعيداً.. وأعلم أنّه يتصنع ذلك هرباً

من الإحراج..

كيف لهذا البشع أن يكون والدَ هذا الإنسان الطيب؟!

الشخص الذي يصنع لكَ ذكريات مؤلمة.. من الغباء المطلق أن تصنّفه كشخص مقرَّب!

بعد ربع ساعة تقريباً من المراقبة..

والتي لا نعلم ما هو الدافع الذي كان وراءها..

فجأة.. أخرجَ والد يحيى مِن تحت مقعده علبة جميلة مصنوعة من الألمنيوم.. كانت علبة شوكولاتة.. بنفسجية اللون..

سعادة غير مفهومة، انتشرت على ملامحي وملامح يحيى..

لكن من الطبيعي جداً أن تبدر من طفلين أمام علبة شكولاتة..

كدتُ أن أنسى شكل الشوكولاتة.. وشعرتُ بأنَّ لديّ الرغبة المفرطة في استعادة تذكر مذاقها الذي فقدتهُ منذ مدة طويلة جداً..

لكنّ والد يحيى كان صادماً كعادته في كل تصرفاته!

قدّمها لي وهي مغلقة.. وطلبَ مني أن أنزل وأتوجّه نحو الأطفال وأقدمها لهم جميعاً من دون استثناء!

تجرَّأ يحيى وطلب من والده تذوّقها قبل نفادها..

فقدَّم له والده صفعة مباغتة أخرى، طالباً منه أن يخرس..

وحذّرني بألّا آكلَ شيئاً منها.. وعندما سألته لماذا؟

أجابني وهو غاضب جداً:

- سوف أحضر لكما غيرها.. أريد اليوم أن أدخل البهجة على هؤلاء الأطفال.. أريد أن أكسبَ الأجر.. كفّي عن الأسئلة.

هل يُعقل أنّ بداخل هذا المسخ.. شخصية أخرى تحمل الخير؟

إجابته غريبة جداً، ولا تليق بشخص مثله..

وجدتُ نفسي مجبرة على تنفيذ طلبه.. وفعلاً نزلتُ من السيارة وتوجهتُ نحوهم بخطوات خجولة.. حتى اقتربتُ منهم..

ولاحظوا وجودي وتقدّمي نحوهم.. ابتسمتُ لهم..

وبادلوني الابتسامة.. طلبتُ منهم الاقتراب كي يتناولوا قطع الشوكولاتة.. ومن دون تردد، وجدتهم يركضون نحوي بسرعة رهيبة جداً.. وأخذوا مني العلبة قبل أن أفتحها لهم..

وتناولوا كل ما تحملهُ العلبة ولم يتركوا أيّة قطعة!..

وشكروني كثيراً ولوّحوا بأياديهم بالشكر نحو سيارة والد يحيى..

وبادلهم هو التحية..

مَن يشاهد ملامحهم، والفرحة التي نزلت عليهم فجأة تحت أشعة الشمس.. لا بدّ أن تسوده البهجة والانشراح..

شكلهم كان جميلاً وهم يضحكون.. ويتلذذون بالمذاق بشراهة..

والحقيقة أنّهم قد أثاروا شهيتي بشكل أسالَ لعابي..

ولم يقطع انسجامي بالنظر إليهم سوى صراخ والد يحيى المرتفع..

والذي طلبَ مني العودة.. فودّعتهم، وطلبوا مني أن أحضر كل يوم

كي أقدّم لهم الشكولاتة.. لا أملك أن أقدّم لهم الوعود.. لكنني فعلتُ كما تفعل أيّة طفلة يسعدها اللعب مع فئة تقترب من فئتها العمرية.

عدتُ إلى السيارة هرولةً..

وعادوا هم إلى مواصلة اللعب بمتعة أكبر..

نظر إليّ يحيى مبتسماً.. وكنتُ أشعر أنني في قمة راحتي النفسية وتمنيتُ فعلاً أن نواصل العمل بهذه الطريقة التي تُسعد الأطفال..

لم نغادر المكان.. واصلَ والد يحيى مراقبة الأطفال!

وبعد مرور عشر دقائق فقط من عودتي إلى مقعدي في السيارة..

وبينما كنّا نشاهد حماسهم في لعبهم بالكرة..

حصلَ أمر غريب لم تصدّقه عيناي، ولا حتى عينيّ يحيى!

بدأ الأطفال يتساقطون على الأرض بشكل متتالٍ!!

وفي لمح البصر، ونحن نعيش دهشتنا الطارئة، ومن دون مقدمات تقدمت سيارتان تجاوزتا سيارتنا بسرعة

قصوى عن الجانبين حتى وصلتا إلى الأطفال..
نزل منهما أشخاص قاموا بحمل الأطفال بسرعة، وبإدخالهم في الصندوقين الخلفيين للسيارتين!

وقبل أن يدخلوهم جميعاً.. انطلقَ والد يحيى بسرعة عائداً إلى المنزل ولكن من طريق آخر مختلف.. أبعد وأطول مسافة!

لم يتحدث يحيى أبداً خوفاً من العقاب..

تجرأتُ وحدي، وأنا أبكي من الصدمة غير المتوقعة..

كنتُ أتساءل عن الذي حدث!

وكان والد يحيى يردّ بالصراخ كالعادة، ويهددني طالباً مني الصمت.. لكنني كنتُ أرفض الصمت..

وأنظرُ إلى الخلف مذعورة؛ لعلّ وعسى أن أشاهد منظراً يطمئنني عليهم قليلاً.. ولكنّه كان يقود بسرعة لم تمكنني من استيعاب أي شيء..

وعندما تأكّد من عنادي، ورأى التمادي العفوي الذي كنتُ أبديه في سلوكي؛ التفتَ نحوي وهو يواصل القيادة..

وضربني بيده اليمنى بكل قوته في أماكن عشوائية من جسدي..

حتى أجبرني على الجلوس..

حصلَ ذلك ويحيى يضعُ ساعديه على رأسه خوفاً من الضرب أيضاً.. وتجنّباً لمشاهدتي بهذا الوضع الصعب..

كان عاجزاً على التدخل.. ولم ولن ألومهُ يوماً..

كنتُ أبكي وأنا أحاول أن أخفض صوت بكائي بإغلاق فمي..

وأتحسس موضع جرحي السابق، الذي عاد يؤلمني بقوة بسبب ضربه المُبرح لي.. ولا أقوى على فعل أي شيء سوى انتظار الوصول إلى المنزل.. حتى أستوعب قليلاً هذا الكابوس المرعب الذي كان للأسف حقيقياً وواقعياً..

كنتُ غبية حينما توقعتُ أن يصدر من هذا الرجل البشع خيرٌ..

حينها تكونت لديّ قناعة.. إنّ معظم الانكسارات غير المتوقعة..

سببها انتظار شيء جميل جداً، من الشخص الخطأ!

وصلنا إلى المنزل بعد ساعة تقريباً..

أنزلنا وأدخلنا إلى المنزل.. ثم وضع الأغلال في يدي..

وصفعني على وجهي.. ثم بصقَ عليه!

ثم جلسَ على كرسي بعيداً عني، وبدأ بإجراء بعض المكالمات..

كان يحيى ينظر إليّ بحزن شديد.. وكنتُ أبكي وأنا أحاول بصعوبة ألا أظهرَ أي صوت.. أمر صعب جداً.. لكنّني تعودتُ عليه..

لا أعلم لماذا كل هذه المعاملة السيئة والإهانات؟..

هذا الشخص حقير جداً، بشكل لا يمكن وصفه..

يتعامل مع الأطفال كالمعلّبات!

وكأنّهُ لا أهلَ لديهم سوف تنقلب حياتهم رأساً على عقب بعد فقدهم المفاجئ.. لا رحمة، ولا نخوة، ولا أيّة رجولة لديه..

أنهى مكالماته التي تأكّد من خلالها بأنّ خطته قد

نجحت..

وبناءً عليه، سوف يحصل على حصته من المال، وهذا ما يهمّه..

ثم غادرَ وحده تاركاً يحيى عندي.. وأغلقَ الباب بإحكام..

اقتربَ يحيى مباشرة منّي، وحاولَ أن يمسح دموعي التي امتزجت بلعاب بصقة والده على وجهي.. وفعلَ ذلك بصعوبة مشكوراً..

ثم قدّم لي الماء؛ كي أتمالك أعصابي قليلاً..

سألتهُ والألم يعتصرني:

- ما الذي حدثَ للأطفال يا يحيى؟

أخبرني وهو في قمة حزنه وإحباطه:

- من خلال مكالماته قبل قليل.. اتّضح لي أنّها صفقة سريعة يعوّض فيها بعضاً من صفقاته الخاسرة في التهريب، والتي يتعاون فيها مع تجار الممنوعات في صعدة.. كبار الحوثيين الأنذال.

حوثيّون!.. هذا الاسم سبقَ وأن مرّ على مسمعي..

يبدو أنّها الجماعة نفسها التي كان العمّ فاضل يرغب في إرسالي إليها، كي يسهّل أفرادها أمر تهريبي إلى بلادي!

ثم واصلَ حديثه:

- هنا يخطفون الأطفال بعد رصد أماكن سكن عوائلهم، كي يقوموا بعد ذلك بابتزاز الأهل، فيعيدون الأطفال مقابل المال، أو يهددون أهلهم بسرقة أعضائهم(14)

- مثلما حصلَ معي في سرقة الأعضاء؟

- نعم تماماً، لكن أنتِ حصل معكِ ذلك مع تنظيم القاعدة.

استغربتُ من إجابته..

لماذا هذا التفصيل، طالما أنَّ النتيجة الإجرامية هي واحدة؟..

خطف وسرقة أعضاء!

سألتهُ عن الفرق بدهشة.. وأجابني إجابة أكثر دهشة.. حين قال:

- لكل جماعة منهما مذهبها ومصالحها هنا وفي الخارج.

أقسمُ لكم إنني لم أفهم شيئاً مما يقول.. لأول مرة أستقبلُ مثل

هذه المفردات في عمري هذا.. كنتُ كالغبية أمامه حيثُ تساءلت:

- مذهبه!.. ماذا تقصد بكلمة مذهبه؟

نظر إليّ مستغرباً، وكأنني كائن غريب جداً.. ثم سألني:

- ألا تعرفين معنى مذهب؟ ما مذهبكِ أنتِ؟

- لا أفهم مقصدك!

- ما هو دينكِ؟

- بالتأكيد أنا مسلمة.. لكن ما علاقة ما تقوله بسؤالكَ هذا؟

نظر إليّ غير مصدق.. وكأنّه يحاول التأكد من صدق كلامي ثم صمتَ برهة من الوقت، قبل أن يسحب نفساً عميقاً ويقول:

- غريبة أنتِ يا إيمان.. صافية من الداخل كأنكِ وعاء لبن.

حاولتُ أن أفهم مقصده، لعلّ ذلك يعطيني حلاً لوضعي..

فعدتُ أحدّثه، والأغلال تحتكُّ بيديّ وتتحرك من اليمين ومن اليسار:

- صدقني لا أفهم ما تقول.. أخبرني: أريد أن أفهم؟

أجابني إجابة بقيت في ذاكرتي كما لو أنّه نحتها نحتاً.. حيث قال:

- وكأنكِ تقولين أخبرني حتى أتدنّس.. لا تستعجلي على تدنيس وعائكِ الطاهر.. مسألة وقت فقط.. قليل من العمر يا إيمان وسوف تكتشفين بنفسكِ طريقة سير الحياة البشعة جداً.. وستصبحينَ حينها كالبقية.. مدنّسة.. لا تستعجلي.

لأول مرة لا أفهمُ حديث يحيى.. كان يتحدث وكأنني لا أسمع..

مفردات جديدة لامست طبلة أذن طفلة مثلي للمرة الأولى..

لم أسمعها في محيطي من قبل، أو ربما قد قيلتْ ولم تلفت نظري..

أيقنتُ حينها أنَّ الاطفال يُخلقون كالأوعية البيضاء فعلاً..

وتتدنس طفولتهم الطاهرة؛ كلما تقدموا في العمر بتأثير محيطهم..

قلتُ له، والحزن سيد الموقف:

- لا تتحدث بأمور غير مفهومة.. أخبرني عن الأهم الآن.. ما هو مصير الأطفال؟.. هل خُطفوا بكل هذه السهولة؟

- ولن تكون المرة الأخيرة.

- ماذا تقصد؟

- طالما بقيَ البشر؛ بقيَ الشر.

مرعبة تلك الإجابة!..

آلمني قلبي كثيراً.. شعرتُ أنني المتسببة فيما حدثَ لهم..

لا أنسى تفاصيل الفرح الذي غزا ملامحهم المرهقة

من اللعب و لم يصدقوا حينَ شاهدوا تلك العلبة البنفسجية المغرية..

وهل هناك طفل على هذا الكوكب يرفض قطعة شكولاتة؟!

هجموا عليها ببراءة.. واختطفوها من يديّ وهم يضحكون..

ولم يعلموا أنّها سوف تكون سبباً في اختطاف أجسادهم!

اللعنة على والد يحيى، ومن هم على شاكلته..

على هذه الكائنات الخطيرة، التي لا تسمح للفرح أن يكتمل..

كيفَ لذاكرتي الملوثة أن تتجاوز كل ما شاهدتُ من بشاعة؟

ظللتُ في أتعس حالاتي النفسية طوال تلك الفترة..

كل يوم أتفكّر بأمر الأطفال، وفي حال عائلاتهم..

حتى أرهقني التفكير.. وبقيتُ على ذلك الوضع السابق..

تفكُّ الأغلال عن يديَّ طوال اليوم.. ما عدا الفترة التي يغادر فيها المنزل ذلك المجرم نادر الطباع..

كنتُ أشعر بالألم يزداد.. طلبتُ من يحيى أن يطلب من والده توفير أيّ "مرهم" كي يلتئم جرحي أو يخفّ ألمه..

لكنّه كان يفشل من إقناع والده في كل مرة..

كان يرفض.. ويطلب مني بكل قساوة أن أتعايش مع الألم!

قد أتعايشُ مع ألم خارجي على الجلد.. ولكن كيف لي أن أتعايش مع ألم الروح؟.. أنا روحي متألمة، وذلك أصعب الألم صدّقوني..

أخبرني يحيى أنّه سوف يسعى إلى توفير العلاج لي خلسة..

لكنني رفضتُ اقتراحهُ بشدة..

لا أريدُ أن أتسبّب له بالمزيد من الكوارث.. فطلبتُ منه بكل إصرار أن يقطع لي وعداً ألّا يقدم على فعل ذلك..

ووافقَ على مضض..

بعد وقت من الصمت المتبادل والسَّرحان..

حصلَ في داخلي تضاربٌ بين بعض الأفكار والذكريات القديمة..

بعض الذكريات أشبهُ بالصعقة الكهربائية..

تنفضُ جسدكَ بعنف لم تقرره بنفسكَ، كي تعيدكَ إلى الحياة..

قلتُ له وأنا أنظرُ إلى الأسفل، شاردة التفكير قليلاً:

- لقد اشتقتُ إلى مدرستي.. إلى صديقاتي ومعلماتي..

- سبقَ وأن أخبرتكِ أنني لم أذهب إلى المدرسة يوماً.

هذا الأمر لطالما كان يثيرُ استغرابي كثيراً..

لم أستوعب أنَّ عدم الذهاب إلى المدرسة هنا..

هو أمر طبيعي، لدى كثيرين من الأطفال للأسف..

أخبرني أنّ هذا يحدث في باكستان وأفغانستان وفي الكثير من الدول.. لقد شاهدَ ذلك عندما رافقَ والده إلى هناك سابقاً..

أذكرُ معلمتي التي أحبّها، كانت تسألنا في الصف: بماذا تحلمون؟

كنتُ أجيبها بكل عفوية: أن أصبح زوجة..

وكان يضحك منّي الجميع، وأضحك معهم..

للأسف.. لقد تحقّق حلمي مرتين يا معلمتي.. قبل أن أكبر..

ابتسمَ يحيى مجاملة، وكأنّه لا يريد التعليق.. فسألته باندفاع:

- هل لديكَ حلم يا يحيى؟

هنا، شعرتُ كما لو أنني استفزّيتهُ بسؤالي!

حيثُ عقد حاجبيه بقوة وهو ينظر إليّ، ثم قال متهكماً:

- حلم!.. هذا السؤال أكبر منّي.

- الأحلام مجانية للجميع، يحق لهم تجربتها.

- إلا بين هؤلاء الوحوش.. للأحلام بينهم ثمن.

- ثمن!.. ما هو؟

أشارَ بيديه المبتور كفّيهما، بعد أن رفعهما إلى الأعلى قائلاً:

- هذا أحد أشكال الثمن الذي ندفعهُ عندما نحلم.

كان حديثه أشبه بوقع الماء البارد الذي سكبهُ عليّ فجأة..

ولم يكتفِ بذلك.. بل واصلَ حديثه منفعلاً على غير العادة، قائلاً:

- حتى أنتِ دفعتِ ثمن محاولة حلمكِ.

- أنا!.. لم أفهم!!

- ألم تحلمي سابقاً بالهرب من قبضة سلوى وزوجها؟

- صحيح!

- كان ثمن حلمكِ هذا.. خسارة لسانكِ.

الحقيقة صعقَني بما قالهّ..

لقد لجمَ جميع محاولات تفكيري.. فالواقع الحزين الذي يعيشه الأطفال بين هؤلاء المجرمين.. أتعسُ من أن يوصَف فعلاً..

تخيّلوا أنَّ هذا الحديث العميق جداً والمؤلم..

يقوله طفل في هذا العمر.. ما الذي سوف يقوله بعدما يكبر،

وهو يحمل معه كل هذا البؤس؟

بعد ثلاثة أيام فقط، من حادثة الأطفال..

عاد والد يحيى إلى المنزل بعد العصر.. وهو غاضبٌ بشكل مرعب لا يمكن وصفه!.. كان يحطم أيَّ شيء يجده أمامه..

ويكيلُ بالشتائم بصوت عالٍ جداً..

تحدّث بالهاتف، ثم أنهى المكالمة صارخاً.. وخرجَ وهو غاضب بعد أن طلبَ من يحيى البقاء وعدم الخروج نهائياً تحت أيّ ظرف..

أغلقَ الباب جيداً كعادته..

سألتُ يحيى مستغربة عن سبب هذا الغضب الذي يُبديهِ والده..

وأجابني إجابة لم أتوقّعها أبداً.. غيّرتْ يومي كله.. حين قال:

- لقد عثرت الحكومة على الأطفال المختطفين

جميعاً، وتمّ القبض على الأشخاص الذين وجدوهم برفقتهم(15)

رفعتُ يديّ من الفرحة لا إرادياً، لكنّ ذلك أصابني بالألم القوي بسبب إحكام الأغلال التي نسيتُ أمرها..

كان ضميري يؤنّبني كثيراً بسبب الأطفال.. شعرتُ أنني كنتُ

سبباً رئيسياً فيما حصل.. بعد سماع هذا الخبر، شعرتُ بالانتصار..

وبراحة الضمير.. فرحتُ كثيراً من أجل الأطفال وذويهم..

لكنّ يحيى لم تكن على ملامحه أيّة علامات سعادة تجاه الخبر!!

سألتهُ وعلامات التعجب كما لو أنّها تتقافز من رأسي:

- ما خطبكَ يحيى؟ ألم يسعدكَ الخبر؟

صمتَ قليلاً، ثم تحدّث وهو محبط جداً:

- أسعدني من أجل الأطفال.. لكنّه أرعبني تجاه

مصيرنا.

صمتٌ مطبق حلّ عليّ!

وكأنَّ الفرحة الناقصة شعور مخصّص لي، خُلقَ لي وحدي فعلاً..

ما هذا الذي سمعتهُ للتو؟! أرعبهُ الخبر من أجل مصيرنا!

نظرتُ إليه بعد أن تلاشت الفرحة من وجهي تماماً..

طلبتُ منه أن يشرح مقصده المخيف.. فتحدّث إليّ بصوت منخفض، وكأنّه يخشى من الجدران أن تسمعه.. قائلاً:

- صفقة الأطفال كانت هدية من والدي إلى شخص هامّ وخطير من جماعة الحوثيين.. بعد أن خسرَ والدي فرصة تهريب بضاعة تخصّهم وقعتْ تحت سيطرة الأمن السعودي هناك.. كان من المفترض أن يتمّ شحن هؤلاء الأطفال إلى بلادكم.

أخبرني يحيى أنّ المشكلة أصبحت أكبر الآن..

أصبحَ والده يخشى على حياته، بعد تكرار هذه الأخطاء الغريبة..

لأنّه معروف وسط هذه العصابات الخطرة أنّه دقيق في عمله..

ولكن هذا الخطأ بالتحديد.. هو الأخطر والأبشع والذي لا يُغتفر!

وعندما سألتهُ: لماذا هذا الخطأ بالتحديد..

أجابني بعد أن تنهّد بعمق، وهو ينظر إلى السقف متفكراً:

- عملية كهذه من المحال أن يخطئ فيها والدي.. هناك من وشى بهِ إلى الحكومة، وهم يشكّون فيه للأسف.

ما هذه المتاهات المتداخلة والمتشابكة؟

لا أستوعب شيئاً من حديث يحيى.. شرحُه لي أتعبَ عقلي..

والحقيقة أنّني شعرت بخوف سريع غير مفهوم، قد بدأ يتدفق إلى قلبي من خلال مجرى الدم..

الأطفال في عُرفهم وبالنسبة لهم.. صفقة تعويض!

أمرٌ مرعب جداً.. وأخشى أنَّ ما ينتظرنا أحداثٌ أكثر

رعباً!!

تأخّر والد يحيى.. ومرَّ على بقاء يديّ في القيود .. ساعات!

شعرتُ بالكثير من الألم.. تنميل مستفزّ.. وعليه الجرح أصبحَ يشاغبني كعادته.. ولا يمكنني حتى أن أحكّه..

وبعد وقت طويل من الانتظار، والأحاديث المتقطعة مع يحيى..

وعند اقتراب الليل من الانتصاف..

اقتحمَ المنزل والد يحيى بسرعة رهيبة!

توجَّه نحوي وحرّرني من الأغلال.. ثم ركضَ كالمجنون وهو يصرخ.. كنتُ أشاهده وأنا أتحسّس يديّ اللتيْن كانتا تؤلمانني حينها.. قام بفتح حقيبة كبيرة، ووضع فيها الكثير من الأمور التي تخصّه.. ثم أزاح مخزناً كان مسنوداً في طرف الغرفة..

وأبعدَ غطاءً خشبيّاً كان تحته..

ثم أخرجَ قطعتيّ سلاح مخيفتين من حفرة صغيرة!

بعدها.. طلبَ منّا سرعة المغادرة نحو السيارة في الخارج..

ولم نكن نملك من أمرنا سوى تنفيذ أوامره، خصوصاً أنّنا كنّا في قمة رعبنا.. وغادرنا بسرعة إلى وجهة لا أعلمُها!

مشهد دراماتيكي كاد أن يخلع قلبي المتعب من مسكنهِ المتهالك..

معظم الأحداث التي أستقبلها ليس لها سابق إنذار!

كواليس هذه الحياة مرعبة جداً.. لا تشبهُ واقعها..

كم أتمنى أن أعود إلى حياة النور، هرباً من حياة الكواليس..

إلى أن أعيش سطحية الأمور.. إلى أحلام الألعاب التي أتمنّى أن أمتلكها بعدما أكسب معدلاً عالياً في شهادتي المدرسية..

إلى شجار حادّ جداً، سببهُ أنّ قطعة الكعك التي أخذتْها أختي

أكبر من قطعتي.. إلى أن أخدع والدتي كي أنام من دون أن أنظف أسناني..

كم أشتاقُ كطفلة إلى أن أركضَ بلا سبب!

يااااه! الركض بلا سبب، نعمة حقيقية لا تلاحظونها..

أنا هنا لا أركضُ إلا لسبب.. أركض هرباً من الموت!!

أهناك تعاسة تعيشها طفلة أكثر من ذلك؟!

هذا الأمر كان يُتعبني كثيراً، ويؤثر على نفسيتي بشكل كبير جداً..

استغرقتْ رحلتنا ساعات طويلة لم أحسبها.. حتى وصلنا..

كانت مملّة وتحمل الكثير من القلق والتوتر الذي نقلهُ إلينا والد يحيى بسبب غضبه واتصالاته المتكررة المزعجة..

لم نتوقف للراحة أو لتناول الطعام.. توقفنا فقط للتزوّد بالوقود..

وبينما نحنُ في طريقنا..

أجبرني هذا المجنون على شيء لم أتوقعه!

لقد جعلني أرتدي النقاب عنوة.. بعد أن قدّمه لي!

ولا أعرف لماذا يحتفظ بغطاء نسائي كهذا في سيارته؟!

ثم حذّرني من خلعه أمام الأغراب نهائياً!!

ظننتُ أنّ دافعهُ ديني بحت.. لكنّه كان سبباً مرعباً لم أكن أنتظره..

كان يخشى احتمال تعرّف رجال الأمن عليّ..

لأنّني كما يقول..

أنا التي قدّمت الشوكولاتة المنوّمة للأطفال المختطفين!

فكما توصّلوا إليهم.. قد يتوصلونَ إليّ؛ إذا تعرّفَ الأطفال على ملامحي..

تهمة جديدة من التهم المتنوعة، التي قد تكون في انتظاري..

هل فرحتي بتحريرهم.. قد يكون ثمنها سلبَ حريتي؟

ماذا تعتقدون أنّني فعلتُ بعد استقبالي لهذا الخوف الجديد؟!

لا جديد.. لقد بكيتُ محبطة ومثقلة من تراكم المصائب..

الحقيقة لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد فحسب..

لقد كانت في انتظاري مفاجأة أخرى جديدة، غير سارة أبداً!

استقبلتُها بعد وصولنا إلى وُجهتنا مباشرة..

حين أخبرني يحيى أننا قد وصلنا إلى مدينة "مأرب"!!

المدينة التي كنتُ فيها برفقة الخاطفين..

المكان الذي سرقوا فيه منّي عضو من أعضائي..

لا أصدق هذا؟.. لماذا حدثَ ذلك.. ما الذي ينتظرني هذه المرة؟!

ظننتُ أنّها صفحة ماضية وطويت، وسوف أواصل إلى الأمام..

شعرتُ بذلك أنني قد عدتُ إلى نقطة الصفر!

بعض الخطوات التي تُعيدنا إلى الخلف.. قد تُعيدنا إلى الظلام!

مرعب جداً أن تعود فجأة إلى الوراء أثناء الظلام..

تعودُ بعد أن تركتَ المكان، وأنت لا تعلم ما الذي ينتظركَ فيه؟..

هذا ما شعرتُ أنني مقبلة عليه!!

توقفنا أمام منزل معزول عن المنازل المتقاربة..

كعادة المجرمين في اختيار مقرّاتهم.. تجدهم يفضّلون الخلوة مع أوساخهم بعيداً عن نقاء الناس!

نزلنا من السيارة، وكان في استقبالنا رجل لم نميز ملامحه بسبب الظلام.. احتضنَ والد يحيى، ورحّب به كثيراً، ثم احتضنَ يحيى..

وألقى عليّ السلام.. كان يعاملني كزوجة لوالد يحيى!

يبدو أنّه أخبرهُ عن ذلك..

فأمثالهم يتفاخرون أمام الجميع أنهم يملكون زوجة صغيرة مثلي..

طلبَ منّا الدخول فوراً.. كان ملتحياً متلحّفاً برداء رصاصي اللون يرتدي زيّاً لم يكن غريباً عليّ..

لبساً أفغانياً يشبهُ ملابس زوج سيئة الذكر.. اللعينة سلوى!

لكنّه أقرب إلى لبس زوجي الأول "أبو الفاروق"

الشخص الذي نقلني إلى أفغانستان، خلال تلك الأيام البشعة في مسيرة شقائي.. فعلاً، لقد كان هذا الرجل من الجنسية الأفغانية..

وضحَ ذلك من لغته المكسرة.. علمتُ بعد ذلك أنه صديق مقرب لوالد يحيى.. وتجمعهُ معه الكثير من الأعمال في اليمن!

قدّم لنا الفراش والطعام، والعديد من الأغراض.. وسلّم مفتاح البيت الصغير إلى والد يحيى، واتفقا على التواصل.. ثم غادرَ بكل هدوء..

خلعتُ حينها النقاب فوراً؛ بحثاً عن الهواء..

فلم أعتدْ على ارتدائه كطفلة من قبل..

لم يستطع والد يحيى أن ينام تلك الليلة؛ بسبب القهر الذي حلّ به.. كان غاضباً جداً، ويشعر بالخيانة!!

يبدو أنّ حياته هذه المرة على المحك فعلاً..

فمَن يتعامل مع المجرمين.. لا ينبغي أن يلعب معهم..

اللعب معهم، يعني اللعب مع الموت!

لا أحد يجرؤ على ملاعبة الموت.. سوى الذي لا يريد الحياة..

وهو كان يعشق الحياة جداً.. لكن على حساب مصير الآخرين!!

العمر "ينفذ".. والمصائب قد لا "تنفد"

مرّت الأيام تلو الأيام..

بقينا على هذا الحال قرابة ثلاثة أشهر!

وصلنا إلى عام 2007.. أكملتُ فيه عامي الخامسَ عشرَ..

ومرّ على اختطافي قرابة عامين أو أكثر.. لا أذكر بالتحديد..

وتجاوزَ يحيى حتماً عامهُ السادسَ عشرَ..

لكن ما يهمّني ويؤلمني.. مرور كل هذا الزمن بعيداً عن عائلتي..

ما كنّا عليه هو أمر لا يُطاق..

ثلاثة أشهر متواصلة، ونحن نتوارى عن الأنظار!

مدة طويلة ومملّة جداً.. أغلقنا فيها علينا الأبواب والنوافذ بشكل محكم.. ولم يكن يزورنا سوى صديقهُ الأفغاني الذي كان يأتي إلينا كل أسبوع محملاً بالمواد الغذائية وببعض الطلبات..

كان الهدف الرئيسي من توارينا بهذه الطريقة،

وتوقّف والد يحيى عن التحركات والعمل.. هو أن يفقد رجال الأمن الأمل من البحث المستمر.. عن أي خيط قد يوصلهم إلى مَن يقف خلف اختطاف الأطفال الأخير..

لمستُ من تصرفاته أنّه لم يكن يخشى من رجال الأمن، بذلك القدر الذي كان يخشى فيه من إمكانية وصول أحد رجال الحوثيين إليه!

فهو في نظرهم الآن ليس سوى كاذب وخائن يبحث عن الإضرار بمصالحهم.. والحقيقة لم يكن كذلك.. لكنّه أخطأ دون عمد!

كان يسعى إلى محاولة إرضائهم؛ حتى لا يتعرّضوا له..

وهذا ما كان يخطط له طوال فترة اختبائه!!

وكان ذلك فعلاً.. بعد مرور كل هذا الوقت الممل..

أُجبرَ على القيام بمهمات جديدة.. لقد عاد إلى العمل القذر مجدداً!

لم يكنْ يخبرنا عن أيّة تفاصيل.. ولا يمهّد لأي شيء..

كان يستخدمنا فقط كطُعم ملفت، يغري فيه ضحاياه البسطاء وينفذ من خلاله كل جرائمه..

في أحد الأيام..

حضرَ ذلك الرجل الأفغاني، وبرفقته رجلين يمنيّين وآخر فلسطيني.. كان أبيض البشرة بشكل ملفت جداً..

جميعهم كانوا ملتحين.. رحّبوا بوالد يحيى ترحيباً حاراً..

كانوا يكنون له المحبة والتقدير كما اتّضح لي..

أخبرني يحيى أنّ لوالده عليهم فضلاً كبيراً في تسهيل مهماتهم..

وخلق الأفكار الشيطانية لهم من العدم.. ولذلك هم لا يتأخرون عنه إذا احتاجَ حمايتهم..

يفعل لهم كل هذا دون لفت النظر حوله، حتى لا يشتهر اسمه كشخص هامّ له نفوذ أو حرس أو غير ذلك..

طلبَ والد يحيى منّا الخروج والذهاب إلى الغرفة المجاورة..

حتى لا نسمع حديثهم.. والحقيقة أنّه فعل خيراً..

وبعد خروجنا من عندهم وخلعي للنقاب.. سألتُ يحيى مباشرة

عن هوية الرجال.. فأخبرني:

- هؤلاء من تنظيم القاعدة.

إجابة أرعبتْني كثيراً.. ولاحظَ يحيى ذلك الرعب عليّ..

فأخبرني ألّا خوف منهم.. فلن يتعرفوا عليَّ بهذه السهولة..

فأنا أمامهم زوجة لوالدِه كما يقول.. وكذلك ارتداء النقاب في حضورهم سوف يُخفي عنهم هويتي..

الحقيقة وجدتُ قرار والده بارتداء النقاب، قد خدمني في أموري أكثر من أن يخدمهُ.. ولكن لم يطمئن قلبي أثناء وجودنا معهم..

سألتُ يحيى عن ذلك الرجل شديد البياض الذي لفتَ نظري..

فأخبرني أنّه صديق والده.. فلسطيني الجنسية..

يتردد بشكل مستمر.. تجمعهُ معه الكثير من المصالح..

سألتُ يحيى بعفوية طفلة، وأجابني وفق معلوماته المحدودة كطفل:

- هل فلسطين قريبة من هنا؟

- أعتقد أنّها تحدّ اليمن تماماً من الشرق.

معلومة جديدة أضفتُها إلى رصيد معلوماتي المتنوعة الكثيرة منذ اختطافي وطوال مرحلة ضياعي التي لا أعلمُ ما نهايتها!

واصلَ يحيى حديثه:

- والدي يريد منهم الحماية، ويبحث عن إمكانية توسطهم لحل الأزمة التي يمر بها.. لم أرَ والدي بمثل هذا الحال من قبل.

بعد أيام من هذا الاجتماع السري المريب..

قرّر والد يحيى أن نبدأ مهمة جديدة.. مهمة أخبرني فيها يحيى أنّ الهدف منها هو إصلاح الخلاف الذي حلّ بين والدي وبين جماعة الحوثيين المتطرفة.. المسيطرين هناك في صعدة!

سألته:

- ألم تخبرني سابقاً أنّهما مجموعتان مختلفتان؟

- صحيح، لكنّ بينهما مصالح مشتركة.

لم تكن إجابته المؤثرة عذراً لكي يواصل إخفاء الحقيقة عني..

فأصريت عليه مبررة ذلك أنّني طفلة مخطوفة، أوشكتُ أن تصبح فتاة.. يجب عليّ أن أعرف أي شيء حتى أجيد التصرف..

فبدأ يخبرني باختصار معقّد فهمتهُ مع مرور الأيام.. علمتُ منه:

أنّهما تنظيمان مسلّحان لا يعرفان سوى لغة البطش..

أفراد تنظيم القاعدة "محسوبون" على "السنة"..

وأفراد جماعة الحوثيين "محسوبون" على "الشيعة"..

كلاهما يدّعيان التدين والتقوى وحب الإسلام ونصرته..

وكلاهما لهما أنصار يبررونَ أفعالهما تحت حجج مريضة..

والحقيقة أنْ لا أحد يحبّهما، سوى مَن تجمعه معها المصالح..

الجميع هنا يخشون بطشهما.. لذلك نجد من يسعى للتعايش معهما وأحياناً للبحث عن مصلحته فحسب..

يفرقهما المذهب، ويخلق بينهما العداء المفرط..

ولكن تجمعهُما المصالح الدنيوية.. المصالح غير الشرعية!

هما لا يتفقان إلا على الشرّ تجاه الشعوب الطيبة..

ختمَ يحيى حديثه كيلا يتشعّب ويطول، ومن ثمّ يتشتت تفكيري..

حين قال:

- عموماً لا تصدعي رأسكِ.. لن تفهمي شيئاً.. وأنا أيضاً لم أفهم حتى الآن ولا أريد أن أفهم.. والدي مثلاً.. يكفّر بعضهم ويكرههم، ولا يتقبلهم أبداً.. لكنهُ يفضل التعامل معهم لأنهم أكثر حذراً من غيرهم.

فعلاً كان الصداع قد تسللَ حتى تركّزَ في منتصف رأسي..

دوّامة عبارات ومسميات وتصنيفات لا نستوعبها كصغار..

لكنّها للأسف تبقى في الذاكرة.. حوار مثل هذا لم أنسَ تفاصيله!

نظرتُ إلى عيني يحيى، ثم سألته وكأنني استجديهِ الإجابة:

- أين نصيب أمثالنا من الحياة على هذا الكوكب؟

- الدنيا للمتديّنين وأتمنى أن تكون الآخرة لأمثالنا من المنهكين.

لم أفهم إجابته، لكنني شعرت بأنّ الأمر لا يُطاق بين هؤلاء الناس..

لم أستوعب حجم هذه المؤامرات، والتي تُحاك خلف حياة البسطاء..

في داخلي صوتٌ يتردد صداه.. كيف الخلاص ومتى؟

كنتُ أشعر في كثير من الأحيان.. أنّ وضعي هذا سوف يلازمني حتى النهاية.. كيف لي أن أنجو من هذا الوحل العميق؟!

كان الوقت هنا يسير بهدوء..

حتى حضرَ ذلك اليوم.. في الصباح..

وعند قرابة الساعة التاسعة.. أيقظنا والد يحيى..

كان يحمل في يده سلاسل!

كان يرغب في تكبيل حركتي من جديد..

الحقيقة لم أقاوم.. تأقلمتُ مع القيود ولم أعد أرفضها..

فالمقاومة مع هذا المسخ.. تعني تأخيراً لما سوف يحدث فقط..

ولم أكن مهيّأة نفسياً حينها لتلقي الضرب المبرح منه..

لذلك كنتُ منطقية بعض الشيء..

وفعلاً.. وضعَ القيود في يديَّ، وأحكمَ تثبيتها.. ثم طلبَ من يحيى مرافقته.. فكان كذلك. وبقيتُ وحدي

على هذا الحال!

مرّ الوقت ببطء.. غالبني النوم بسبب الملل والتفكير المتشعب..

نمتُ نومة ثقيلة غير مريحة أبداً..

ويكفي أن أصفَ لكم أنّ الأرضية التي كنتُ أفترشها بعظامي..

كانت مصنوعة من حصير قديم، كان قد وُضع على أرضية صلبة..

استيقظتُ على صوت فتح باب المنزل الحديدي..

كانت الشمس تتوارى.. الوقت يشير إلى اقتراب المغرب..

الشمس على وشك أن تغيب.. أيعقل أنّني نمت كل هذا الوقت؟

دخلَ والد يحيى كاللص، ومن خلفه يحيى..

ثم أغلقَ الباب.. كانت الفرحة تتطاير من وجهه بشكل غريب..

يبدو أنّ مهمته قد نجحت.. ولكن ما هي جريمته

هذه المرة؟

فكَّ الأغلال، وكأنّه تعاطفَ مع وضعي المزري كل هذه المدة..

ثم ذهب إلى الغرفة المجاورة، وأغلقَ الباب على نفسه!

عاد التنميل إلى يديَّ.. وكعادة الجرح كان يتحرك ألماً بشكل يشبه حلوى المفرقعات التي تذوب في الفم.. لكنّ الألم لا يصدر صوتاً..

ما لفتَ نظري.. هو يحيى!

كان وضعه النفسي مزرياً جداً.. وجدتهُ يقاوم دموعه بصعوبة!!

اقتربتُ منه وأنا أحرك يديّ كي تعودا إلى طبيعتهما..

وسألته عن صحته.. لكنّه كان صامتاً لا رغبة له في الحديث..

أخافني حقيقةً، فطلبتُ منه متوسلة أن يتحدث.. وليتهُ لم يستجبْ!

أخبرني أنّ والده قد أقدم على عملية خطيرة جداً وبشعة..

قال ذلك لي، وأسنانه ترتعد من هول ما رأى:

- ذهبنا بالقرب من صعدة.. التقى والدي ببعض الأشخاص هناك، ووضع لهم خطة محكمة.. لا أعلم كيف خطط لها؟.. خطة كان هدفها استهداف مجموعة من السياح الأجانب.

كعادتي كنتُ غبية جداً في تفسير هذه الأمور..

طلبَ مني أن أبقي هذا الأمر سراً.. وأخبرني وهو خائف جداً من أن يسمعه والده.. قال مختصراً:

- مستحيل أن يكون والدي بشراً.. هو شيطان على هيئة إنسان كيف له أن يتعامل مع كل هؤلاء المجرمين بمختلف ميولهم.. ويرسم لهم الخطط، وينسق بين الأشخاص بعلاقاته المتشعبة دون أن يقع في شرّ أعماله؟

- يحيى ما الذي حصل؟.. تحدّثْ قبل أن يخرج من الغرفة.

- لا أعلم لماذا أقدمَ على هذا النوع الخطير من

العمليات بالتحديد.. لقد سهّل للمجرمين هناك تنفيذ عملية إرهابية مجنونة وبشعة تجاه مجموعة من السياح الأوروبيين(16)

كالعادة.. يبنون استقرار حياتهم على دمار حياة الآخرين..

أرادَ هذا المجرم أن يصلح علاقتهُ مع أصدقائه المجرمين بهذه الهدية البشعة كأرواحهم الشيطانية!

ما هذه القلوب السوداء التي تسكن صدورهم؟

كيف للقلب الذي خُلق لعشق الحياة، أن ينبض من أجل قتل الآخرين؟!

دقائق وخرجَ والده من الغرفة.. والسعادة على ملامحه لا توصف!

كيف للإنسان أن يفرح بالدمار؟

كيف له أن يصل إلى قناعة مفادها أنّ قتل الأبرياء هو انتصار؟

لا أعلم كيف تجرّع هذا الحقير كل هذه البشاعة!..

ولكن.. هناك نوع من الشر لا يكتمل..

تجد مؤشّره يصعد فعلاً.. ولكنّه يسقط مباشرة من دون تمهيد..

تماماً مثل خيط بالون رُبط بها، وفرحَ بطيرانه دون أن يحسب حساب احتمال انفجار البالون.. ومن ثم سقوطه بكل سهولة!

قبل انتصاف تلك الليلة.. لم تكتمل له فرحة!!

فقد وردهُ اتصال، قبل أن نبدأ في تناول طعام العشاء البسيط..

ودون مقدمات، تغيرتْ ملامحه، وعلا صوته، وسادَ ارتباكه!

طلب منّا التحرك فوراً نحو السيارة!!

لقد أفزعَ قلبينا هذا الأحمق، الذي لم ولن نتنبأ يوماً بأفعاله المفاجئة..

ركضنا كما أمرنا، ولم نتمكن من نتناول أيّة لقمة من الطعام..

حملَ حقيبتهُ.. وحملنا نحنُ بعضاً من أغراضنا، والتي كانَ معظمها مكوّناً من ملابسنا البسيطة..

ثم تحركنا إلى جهة لا أعلمها في هذا الليل..

وما أكثر الوجهات التي أرغمني القدر على الذهاب إليها دون معرفتها..

لكنّها رحلة لم تكن طويلة أبداً.. قرابة نصف الساعة فقط!

لقد وصلنا إلى منطقة سكنية غير مزدحمة في محاذاة "مأرب"..

اقتربت الساعة من الواحدة بعد منتصف الليل..

أوقفَ والد يحيى السيارة جانباً..

كان يصرخ بصوت عالٍ جداً.. صوتهُ مخيف، وشكله كذلك..

وكانَ يقوم بضرب المقود بكل قوته بكلتا يديه..

كالقرد الهائج الذي يرغب بالتحرر من القفص!

حينها كان الصمت يغشى وجهينا أنا ويحيى؛ تجنباً لتعنيفهِ لنا..

لم أعهده بهذا التوتر أبداً.. تحولتْ فرحته بسرعة إلى غضب..

على الرغم من الخوف الذي سبّبه لي صراخه داخل السيارة..

إلا أنني كنتُ مبتهجة من الداخل.. فأمثاله يستحقون المعاناة..

يبدو أنهُ يمر بأصعب ظرف في حياته فعلاً!

لا تغضبوا؛.. فغالباً الغضب هو نتيجة عادلة لسوء أعمالكم..

انتظرنا قرابة نصف الساعة..

حتى وردهُ اتصال.. ثم اقتربت سيارة أخرى بسرعة..

أخذنا أغراضنا، وركبنا في السيارة الغريبة..

كان يقودها رجل ملتحٍ كعادة معظم أصدقائه.. ولم يتحدث معنا أبداً طوال الطريق.. حتى أوصلنا إلى بناية قديمة جداً!

وطلبَ منا الصعود إلى الطابق الثالث..

حيث سيكون في انتظارنا في الأعلى رجل سيقوم باللازم..

وبالفعل، انطلقَ والد يحيى حاملاً حقيبته، ونحن

كذلك نتبعهُ هرولة خوفاً من الضياع.. على الرغم من جزمنا أنّه هو من يقودنا إلى الضياع الحقيقي بأفعاله.. حالة عجيبة لا يعيشها سوى العاجزين..

صعدنا حتى وصلنا إلى الباب المقصود..

طرقَ الباب وفتحَ له رجل.. طلب منا الدخول بسرعة..

وجدنا في الداخل سبعة رجال، كانوا في انتظارنا!

البعض منهم يرتدي ملابس يمنية، والبعض الآخر ملابس أفغانية..

كانت الشقة عبارة عن ملحق في السطح.. وكان الرجال يجلسون

في الفناء المكشوف.. وأمامهم الشاي وبعض المأكولات..

رحّبوا بوالد يحيى.. أخذوه بالأحضان كعادة كل من يلتقي به..

وطلب منّا بعد فروغه من ترحيبهم، الجلوس في آخر الفناء..

لماذا أجد نفسي أعيش كل هذه المشاهد المخيفة؟

لقد سئمتُ هذا الحال فعلاً..

من هم في عمري ينبغي أن يجلسوا في فناء جميل..

لا يضم سوى الألعاب الترفيهية.. وليس تلك الوجوه المرعبة..

بعد جلوسي بالقرب من رفيق الألم.. الحنون يحيى..

بدأتُ بالنظر إلى وجوه الرجال.. إلى أن وصلتُ إلى وجه أحدهم..

وبعد التدقيق فيه.. شهقتُ فزِعة، وكادت أن تنقطع أنفاسي!

لاحظ يحيى ذلك.. فطلبَ مني الهدوء؛ كي لا يغضب والده..

لكنّني كنتُ في قمة صدمتي ممّا شاهدت.. لا أصدق أنه هنا..

قائد العصابة التي خطفتنا أثناء نقلنا من السجن!

زوج شريفة.. الطفلة المتوفاة!!

نعم أنّه أبو معاوية بشحمه ولحمه.. يجلس متوسطاً الرجال!

كنتُ أرتعد بشكل قد يفضحني.. وأحاولُ التماسك بصعوبة..

لم أتوقع أن ألتقي به مرة أخرى.. أن تقودني قدماي إليه..

بعض الصدف ليست خيراً من ألف ميعاد..

قد تكون سببَ اللعنات التي تلاحقكَ حتى اليوم!

اقتربَ منّي يحيى مستفسراً عن الذي أصابني فجأة..

تمالكت أعصابي، وأخبرته بصوت منخفض بشكل مختصر..

قاطعني فوراً، وطلب مني الصمت والصمود..

وحذّرني من كشف النقاب كليّاً..

النقاب!.. لقد نسيتُ أنني أضعه لفرط الخوف الذي حلّ عليّ لفتَ نظري إلى هذه النقطة.. لن يتعرف عليَّ الرجل طالما أنهُ لن يرى وجهي.. وهذا ما أراحني

نسبياً، وأعاد إليّ بعضاً من الهدوء..

ما أرعبني هو تلك اللحظة التي سألَ أحدهم فيها والد يحيى عنّي..

وأخبرهم كعادته متفاخراً أمامهم أنّني زوجته الأفغانية..

تدخّل أحد الرجال الأفغانيين، وسأله سؤالاً غير متوقع..

إلى أيّة منطقة في أفغانستان أنتمي؟

تلعثمَ والد يحيى، لكنه اختصر الإجابة بأنّها أسرار عائلية فضحكوا جميعاً مردّدين أنّ إجابته جاءت بدافع الغيرة!

أغبياء؟.. أم أنّهم خلقوا هكذا لا يجيدون استعمال الذكاء إلا في صنع الموت؟

كانوا ينظرون إليَّ بشراهة، على الرغم من تستّري الكامل..

ضباع بشرية قذرة، لا أفهم شراهتهم تجاه الصغيرات بهذا الشكل!

ما يهمّ أنّ الموقف مرّ بسلام.. ولم يتعرف عليّ ذلك الحقير..

بعد ساعة من تبادل الأحاديث.. غادر معظم الرجال، ولم يتبقَّ سوى رجلين من الجنسية الأفغانية.. لهم غرفتهم الخاصة..

ولنا نحن ثلاثتنا غرفتنا الخاصة أيضاً..

بقينا مختبئين في هذا المبنى الهادئ قرابة الشهرين..

فالاستنفار الأمني بخصوص ما حدثَ للسياح الأوروبيين..

لم يكن عادياً كما بدا لي.. لاحظنا ذلك من أحاديث والد يحيى مع الرجال الذين يزورون المكان بين فترة وأخرى..

مع مرور تلك الأيام..

أخبرتُ يحيى عن تزايد الألم الذي يسببهُ جرح العملية..

بين فترة وأخرى كنتُ أشعر بالدوار والغثيان على غير العادة..

فأنا لم أتلقَّ الرعاية الصحية اللازمة بعد تلك العملية الخطيرة..

ووعدني يحيى أنّه سيتحدث مع والده عن ذلك..

وبالفعل.. كرّر يحيى الحديث مع والده عن الموضوع..

حتى أتى ذلك اليوم السيئ، الذي لا يقل سوءاً عن الأيام السابقة!

والذي لاحظ فيه والد يحيى حالتي الصحية غير الجيدة..

فقرر أن يعطي يحيى بعض النقود..

ويرسله لإحضار مرهم يهدّئ الجرح، ويساعده على الالتئام..

فرحتُ كثيراً، وفرحَ يحيى بهذا التعاطف من قبل والده..

وذهبَ مسرعاً كي يبحث عن أقرب صيدلية ممكنة..

كانت الوقت ما بين المغرب والعشاء..

المنزل هادئ جداً.. لم يكن يوجد أيّ أحد من الرجال!

هذا النوع من الهدوء غير المعتاد يجلب لي التوتر..

وبينما كنتُ ممددة على الفراش غير المريح أبداً..

واضعة يدي اليمنى على جرحي؛ كي تهدأ نغزته المستفزة..

دخل عليّ والد يحيى وأغلقَ الباب!..

وجدتُ نفسي أنهض من دون شعور، وأتراجع نحو الجدار..

نظر إليّ صامتاً.. شعرتُ أنّ عينيهِ تحملان قذارة الكون كله!

ثم بدأ بإزاحة ملابسه مبتدئاً من الأعلى.. وقبل أن يواصل..

أصبتُ لا شعورياً بجنون، جعلني أنسى الألم وأنسى كل شيء..

صرختُ بصوت عالٍ، وانخرطتُ في البكاء حتى كاد صوتي يختفي.. لم أصدق هذا الذي يحدث أمامي..

اقتربَ مني بسرعة وأغلقَ فمي بيده، هو يردد بالقرب من أذني:

- أنتِ زوجتي.. وأحتاجكِ جداً.. عليكِ أن تهدئي من أجلي.

كان يكررها وهو يضمّني محاولاً أن يضع رأسي على الأرض..

وكنتُ أقاوم بقوة لا حدود لها.. شعرتُ كما لو أنني أملك عشرة أضعاف قوتي الحقيقية..

ولكنّه كان أقوى مني.. نجحَ في تثبيتي على الفراش للأسف..

ولم ينجح في إنهاء تصاعد صراخي..

وكأنّ القدر أراد أن ينهي كل هذه البشاعة التي لا توصف..

أرعبهُ صوت القرع القوي الذي كادَ أن يكسر الباب..

أفلتَني من تحت قبضته النجسة.. ثم نهضَ كي يفتح للطارق..

كانوا ثلاثة رجال من الذين حضروا تلك الليلة..

ومن بينهم قائدهم أبو معاوية!

وصلوا من أجل السهر.. ولم يتوقع أحد حضورهم مبكراً..

غضبوا منهُ بسبب تصاعد الأصوات، والتي بسببها قد نلفتُ انتباه سكان البنايات المجاورة إلى وجودنا المشبوه..

ثم ظهرَ الرجلان الأفغانيان اللذان يشاركاننا السكن..

والقلق كان يطغى عليهما، خوفاً من افتضاح أمرنا في المنطقة..

وبينما هم يتحاورون بغضب، على وقع صوت بكائي المتقطع..

قمتُ بمباغتته خلال انشغاله..

وهربتُ من جانبه، واحتميتُ خلف الرجال!

نظروا إليّ جميعاً.. كان شعري مبعثراً يشبهُ بعثرة القش..

وملابسي يتّضح من هيئتها المزرية أنّها ممزقة بعض الشيء..

هيئتي كلها تخبرهم أنني نجوتُ بأعجوبة من معركة قذرة..

لكنّها في نظرهم تبدو طبيعية.. لأنّها حلالاً!

لم يغضبهم سوى ارتفاع الصوت فقط!!

غضبَ والد يحيى، وصرخ عليّ طالباً مني العودة والاحتشام..

ولكنْ حدث مالم يكن في الحسبان..

يبدو أنني قد ورّطت نفسي بدلاً من أن أنقذها!

وجدتُ أبا معاوية قد تجرّأ على النظر إليّ..

كانت نظراته تخترق نظراتي.. وسط استغراب الجميع!

وخصوصاً والد يحيى الذي عجزَ من أن يمنعه عن ذلك..

لم تطلْ نظرات الشك، حتى دخل علينا يحيى..

كان يحمل بساعده كيساً صغيراً بداخله "المرهم"، وعلامات الفرحة على وجهه.. لكنّها تحولت بلمح البصر إلى صدمة، بعدما رأى حالتي وبكائي.. تركَ

الكيس يسقط أرضاً.. ثم هرول نحوي كي يسألني عمّا أصابني؟..

ولم أكن في حالة يمكنني معها أن أتفوّه بأيّة كلمة..

أدارَ رأسه نحو الرجال فزعاً.. ثم نظرَ إلى والده الحقير..

شاهدَ نصفَ جسدهِ العلويِ مكشوفاً.. وأنفاسُ الغضب تكاد تخترق صدره مندفعة إلى الخارج..

هنا، علمَ يحيى السبب، ولم يصدق ذلك!..

لم يتمالك نفسه فأرادَ أن يهجم على والده.. ولكنّ أحد الرجال منعه من ذلك.. وبهذا التصرف المتهور من يحيى..

ثارَ غضب والده وكاد أن يصبّ جام غضبه كله عليه ضرباً..

ولكنْ تدخّل رجل آخر ومنعهُ أيضاً من فعل ذلك..

يحيى كان في حاله جنون وتشنّج شديدين.. لم يتحمل رؤيته لي

بهذه الحالة السيئة.. بعد محاولة والده الاعتداء

عليّ..

حيث واصلَ صراخهُ وهو يشير بيده نحو والده مردداً:

- أنتَ تعلم أنها تعاني من جرحها.. هل أرسلتني لأحضرَ لها المرهم.. كي تنفرد بها وتغدر بها من جديد كما فعلتَ سابقاً.

هذه الكلمات الصادقة، التي خرجت من الطيب جداً يحيى..

للأسف لم تزد الطين إلا بلّة!

لقد جعلتْ قائد العصابة يقطع الشك باليقين، ويعلم أنّني أنا الطفلة الهاربة من قبضتهم بعد الفراغ من عملية سرقة الأعضاء..

أنزلَ عمامته من فوق كتفه.. واقتربَ مني وأنا أرتعد خوفاً..

ثم غطّى شعري.. فعلَ ذلك وهو يقول لي:

- لا تخافي.. كل شيء سوف يكون على ما يرام.

ثم أمرَ الرجال بالقبض على والد يحيى، وتكبيله جيداً!

صدمة حلّت علينا جميعاً!!

لم يستوعبْ والد يحيى ما حصل.. جميعنا صُعقنا من هذا الأمر! وبالفعل، هجموا عليه جميعاً، وأسقطوه أرضاً وسط مقاومته الشرسة.. وحصل ما حصل..

كان يصرخ مصدوماً ومستفسراً عن السبب!

وبعد أن تمكّنوا منه، وأجلسوه على ركبه مجبراً..

اقتربَ مني قائد العصابة أبو معاوية مرة أخرى..

ومن دون سابق تمهيد..

سحبني من يديَّ، وأحكم قبضتهُ عليهما.. حاولَ يحيى مساعدتي لكنّ أحد الرجال عاد ليمنعه رغماً عنه، ولم يستطع الإفلات منه..

صدمني هذا التصرف، وحاولتُ المقاومة وأنا أصرخ..

وفي أقل من عشر ثوانٍ.. وقفَ أمامي كي يحجب الرؤية عن الموجودين بظهره.. ثم كشفَ عن بطني!!

أراد مشاهدة موضع الجرح.. العملية التي قامَ بها رجاله في الخفاء لي ولبقية الأطفال.. وفعلاً تأكّد

بذلك من هويتي..

وقطعَ الشك باليقين تماماً.. ثم أعلنَ والغضب يتطاير من عينيه وهو ينظر إلى والد يحيى:

- خذوا هذا الخائن إلى إحدى الغرف، وضعوا اللاصق القوي على فمه كي لا يصدر أيّ صوت.. حتى ننظر في أمره.

ثم طلب من أحد الرجال أن يهتمّ لأمري وأمر يحيى ويحتجزنا في غرفة أخرى مجاورة..

أحداث متسارعة ومتداخلة وجذرية غير متوقعة أبداً..

كنت أبكي وكان يحيى يهدئ من روعي..

خصوصاً أنّه لم يحدث لي سوء.. لكنّ المشهد وحده كان مرعباً ولن يغادر ذاكرتي.. والأسوأ من هذا كله.. فقدْنا "المرهم"!

طلبَ يحيى من الرجال أن يأتوا به بعد أن سقطَ منه..

لكنهم كانوا لا يتجاوبون مع طلبهِ أبداً..

من الغباء أن تطلب من يد المجرم الذي يخطف الأرواح..

دواءً يعالج به ألم روح أخرى.. هم لا قلوب لديهم ولا رحمة..

واصلَ تهدئته لي ببعض الكلمات.. دون كلل أو ملل..

ونحن وحيدان تحت رحمة هؤلاء المجرمين.. قال لي:

- لا عليكِ منهم.. نحن ملائكة رغماً عنهم.

تساءلتُ وأنا أفشل في تجفيف دموعي:

- وهم؟

- هم شياطين.. قلوبهم من نار.

لطالما كانت أحاديثه تضفي عليّ شيئاً من الراحة..

كلما رأى القهر قد تمكّنَ مني.. حاولَ تشتيته بأيّة طريقة..

على الرغم من حاجتهِ هو إلى من يخفّف عنه أيضاً..

بعض الكلمات الصادقة، لا تُصلح انكساركَ..

لكنَها حتماً سوف تدفعك إلى محاولة تجاوزه..

ومنذ صباح اليوم التالي..

بدأ يتسلل إلى أذني وأذن يحيى صوت الصراخ لوالد يحيى!

على الرغم من محاولتهم كتم صوته..

لقد بدؤوا في تلقينهِ درساً بالضرب المبرح، وبأبشع أنواع التعذيب الحقيقة لم أحزن، ولاحظتُ على يحيى أنّه كان متقبلاً لذلك..

إنّها المرة الأولى التي نسمعُ فيها صوت الألم يخرج من هذا الوحش.. لقد وقعَ في شر أعماله، دونَ أن يتوقع ذلك..

تساءلتُ بيني وبين نفسي غير مصدقة..

هل هذا هو الشيطان الذي لا يملك أيَّ إحساس منذ أن عرفته؟

هو نفسه الذي يصرخُ الآن ويتوسل!!

كل الجبروت الذي كان يمارسهُ.. وجد مَن يمارسه عليه؟..

الحياة أقوى من الجميع.. ليس هناك أقوياء.. هناك أقوى الضعفاء.

سألتُ يحيى المغلوب على أمره..

والحيرة ترهقني بخصوص تصرفات أبي معاوية.. قائلة:

- لماذا يضحّي برجاله بكل هذه السهولة؟

أجابني وهو يحاول أن يحكّ أنفه بصعوبة:

- حتى أبو معاوية، هناك من هم فوقه قد يضحّون به.

- ماذا تقصد؟

- هناك لعبة يلعبها الأثرياء.. عندما ينتصر فيها الملك يكون قد ماتَ قبله كل الجنود.. تسمى "الشطرنج".. نحن جميعاً تحت أيادي أمثالهم، أشبه بأحجار الشطرنج.

إجابة شعرتُ بها.. أكثر من أن أفهمها..

بعد دقائق.. انخفضَ صوت صراخ والد يحيى..

تمدّد يحيى حينها محاولاً النوم.. لكنّه فشل.. بقينا

نتأمل السقف حتى استيقظتْ لديّ عادتي الفضولية التي تدفعني إلى طرح الأسئلة.. استأذنتهُ لكسر حالة الصمت التي تتلبّسه، فكان مرحّباً كعادته بي.. فسألتهُ ووحده من يفهم حديثي صعب النطق:

- لديّ سؤال قد تظنّه غبياً.. لكنّه يشغلني كلما فكّرتُ.

- كل الأسئلة غبية، إلا التي تحيّرنا الإجابة عنها.. تفضّلي.

رحابة صدره هذه، تجعلني لا أتردد في التفكير جهراً أمامه..

فسألته بكل تجرّد لا يناسب عمري الحقيقي.. قائلة:

- هل كل الآباء والأمهات يموتون؟

- نعم طبعاً.. لحظة لحظة، ماذا تقصدين؟

- لماذا بعضهم يأتون بأطفالهم إلى هذه الحياة القاسية، ثم يتركونهم وحدهم تحت عذر الموت؟

- الموت ليس عذراً.. الموت مصير.

نهضَ بعد ذلك كي يعدّل وضعيّته..

ثم جلسَ بالتوازي مع وضعية جلوسي.. وقال:

- الحقيقة، لطالما تمنيتُ لو أنّ والديّ لم يأتيا بي.. لن أغفر لهما فعلتهما الغبية التي كانت سبب وجودي هنا.

أعتقد لا يحتاج أحدكم أن أشرح له حجم الألم الذي يشعر به يحيى تجاه تفاصيل طفولته.. كيف لطفل أن يعتبر وجوده أشبه بالذنب؟!

ويعلن أنّه لن يغفر لوالديه قرار إحضاره إلى هذه الدنيا!

لن يصل طفل إلى مثل هذه القناعة، إلا بعد تراكمات مؤلمة وقاهرة أثقلتْ الوطء على قلبه الصغير.. محزنٌ هو حاله وحالي.. وحال البقية..

بقينا على هذا الحال أسبوعاً..

لم نغادر الغرفة.. ولم يتوقف الرجال عن تعذيب والد يحيى..

وبدأتُ أشعر بارتفاع مستمر في حرارتي.. لقد كنتُ ازداد سوءاً..

كان يحيى محبطاً وعاجزاً أمام حالتي..

وكعادة الحمى.. تساهم في خلق الأفكار من خلال الشرود الذي يحتل مخيلة مَن تتمكن منه.. لذا سألتُ يحيى سؤالاً طرأ على بالي.. كنتُ كالغريق الذي يبحثُ عن قشة تنقذهُ من تلاطم المحيط العميق..

تذكرتُ حينها مقولة تلك المرأة التي اهتمّت بي هي وبناتها..

زوجة العم سليم.. صديق العم فاضل الذي لم يكن أميناً معي..

خطرَ على بالي اقتراحها الذي طرحتهُ على الرجال في اللقاء الأخير.. عندما اقترحت عليهم أن يقوموا بإيصالي إلى ما يسمّى بالسفارة.. بدل مركز الشرطة..

ولم أفهم شيئاً حينها عن هذا الاقتراح..

وجدتُ نفسي أسأل يحيى عن ذلك.. بعدما أخبرتهُ بالواقعة..

استغربَ من الفكرة.. لكنّه تقبلها كثيراً بعد برهة..

حيث قال:

- أعرفُ أن لكل دولة سفارة فعلاً.. لكن لا أعلم شيئاً عن مهماتهم هناك.

- هل يمكنكَ أن تسأل؟ ربما نجد لديهم حلاً يختصر كل شيء!

ثم أعطيتهُ رقم المحامي المتطوع..

الذي استمعَ إلى قصتي وأنا في الحبس وكان يرغب في مساعدتي..

كنتُ مشوشة، لكنني أريد استخدام أيّ حل ممكن يتوفر بين يديّ..

لم أجد أيّة طريقة لأكتب ليحيى الرقم.. لكنه طمأنني وهو يضحك لأنّ لديه ذاكرة لا تنسى.. وفعلاً أثبتَ لي ذلك..

فبعدما أخبرتهُ عن الرقم الذي كان سهلاً بعض الشيء..

أعادهُ أمامي مراراً وتكراراً.. لقد حفظهُ بسرعة..

من السهل أن يسمعكَ أحدهم وقت الرخاء..

من الصعب أن يثبتَ ذلك سلوكاً وفعلاً وقت الشدة!

طمأنني بعد ذلك إلى أنّه لن ينساه.. ووعدني خيراً وهو يبتسم..

حدثَ ذلك على الرغم من أنه لا يعرف مكان السفارة..

ولا حتى الطريقة التي قد تمكّنه من التواصل مع المحامي..

لكنّه وعدني بكل صدق.. أنّه سوف يسعى إلى مساعدتي عندما تسنح له أيّة فرصة ممكنة.. فكما يقول إنَّ الأهم الآن هو الخروج من هنا والاهتمام بصحتي.. كان منطقياً في ترتيب الأولويات فعلاً فمعلومات كهذه، لا نملكُ أيّة خلفية عنها كأطفال للأسف!..

المقصود بالنهاية أحياناً..

الخروج من كل شيء!

مرت الأيام بشكل روتيني وغير مريح..

كنّا نستمع خلالها إلى أصوات تعذيب متفرقة لذلك القذر..

ولكن.. لم يستمر هذا الوضع.. لم تنتهِ المفاجآت عند هذا الحد!

الشيطان والد يحيى.. تحرّك تحركاً غيّر الكثير من الأمور..

نجا بأعجوبة غير متوقعة من العذاب الذي كاد أن ينهي حياته!

لكن.. كيف حدثَ ذلك؟

لقد أخبرَ أفراد تنظيم القاعدة وأقنعهم بأنّه يملك دليل براءته!!

وأنّه على استعداد تام أن يثبت لهم صحة كل اعترافاته التي لم يصدّقوها منذ البداية..

وعليه.. تمَّ جمعنا معه في الغرفة التي كبّلوه فيها..

بحضور بعض الرجال، وخصوصاً قائدهم (أبو معاوية)..

كان يحيى ينظر إلى والده صامتاً، والحزن لا يفارق ملامحه..

وأمّا أنا.. فعندما شاهدته أسعدني منظره.. لقد كبّلوه بالطريقة نفسها التي كان يكبّل يديّ بها.. كان وضعه مزرياً بكل ما تعنيه الكلمة.. اللكمات واضحة على وجهه، وخصوصاً تحت عينيه..

أمثاله.. لن تُشفى أرواحهم إلا بعد أن تُشفى كل الأرواح المسالمة التي تضررت كثيراً بسببهم!

هو يستحق المزيد.. بل يستحق الموت كأقل عقاب..

لكنّ مثلهُ يخيل إليّ أحياناً أنّه يملك عشرة أرواح!

كان يتوسل إليهم كي يعطوه فرصة؛ حتى يثبت لهم عدم خيانته..

ويبدو أنّهم أحضرونا للوقوف أمامه من أجل ذلك..

طلبَ منهم أن يحضروا له حقيبته.. وكان لهُ ما

طلب..

فكّوا القيود من يديه.. وبدأ يتحسّس أطرافه كالمدمن بسبب التنميل الذي تسللَ إليها.. كما كنتُ أفعل بسببه تماماً..

ثم قامَ بفتح الحقيبة بصعوبة.. وأخرج منها جواز سفر!

جوازي الأفغاني(17)!!

صُعقتُ من هذا التصرف الخبيث جداً..ليس ذلك فحسب..

لقد أخرجَ لهم أوراق استلامي من مركز الشرطة بصفتهِ زوجي!

هنا، صمتَ الجميع أمام هذا المشهد غير المتوقع..

التقط المجرم أبو معاوية كل الأوراق ومن ثمّ الجواز..

وبدأ في التمحيص والتدقيق.. ثم نظر إليّ ووجَّه سؤالاً مباشراً:

- قولي الحقيقة.. هل ما تحملهُ هذه الأوراق

صحيح؟

لأول مرة يخاطبني مباشرة.. ملامحهُ المرعبة لا يمكن وصفها..

لحيتهُ الطويلة التي يختلط فيها السواد مع البياض..

تحيط بوجهه بشكل عشوائي، يجلب التوتر إلى كل من يشاهده..

كنتُ أخشى الإجابة.. بدأت التساؤلات تتدافع إلى أعلى رأسي..

هل أخبرهُ بحقيقة جنسيّتي؛ فيتم استغلالي كما فعلَ والد يحيى؟

أم أصادقُ على حقيقتي المزيفة، وعليه تستمر معاناتي؟!

كانَ والد يحيى ينظر إليّ وكأنني أملك القرار في عتقِ رقبته..

وكذلك يحيى.. كان ينظر إليّ والقلق يغشى تفاصيل وجهه..

للأسف أحياناً.. أن تستمر في معاناتكَ التي

تعيشها..

أفضل من أن تخوض معاناة جديدة قد تكون أكثر وبالاً عليك..

أن أبقى برفقة يحيى؛ أملاً في أن أجد حلاً بمساعدته كما وعدني..

أفضل من أن أفترق عنه.. ويتشتت حينها أملي الضعيف والأخير في النجاة.

كرّر سؤاله غاضباً، بعد أن اقتربَ مني..

أخافني كثيراً بصوته المرتفع.. فأجبتهُ بحروف غير واضحة

وأنا اعتَصر ألماً، وعيناي لا تفارقان عيني والد يحيى:

- نعم، كل ما قاله صحيح.. أنا زوجته.

لقد فهموا إجابتي..

شعرتُ كما لو أنّ هذا الشيطان البشري قد تنفّس الصعداء..

حتى يحيى، شعرتُ أنه استحسنَ إجابتي على الرغم

من حزنه..

يبدو أنّه يعلم جيداً خطر هذا التنظيم الإجرامي المسمى بالقاعدة..

أمرَ القائد أبو معاوية بإعادتنا إلى غرفتنا الكئيبة..

وبإبقاء ذلك الحقير في مكانه، حتى يتم التفكير في مصيره..

وكان كذلك..

بعد أن دخلنا إلى الغرفة، وأغلقوا الباب علينا بإحكام..

عادت إليّ بعض الأنفاس بعد أن كادت تنقطع..

سألني يحيى عن سبب إجابتي غير المتوقعة.. والتي أنقذت والده بدلاً من توريطه والتخلص من قبضته..

أخبرتُه أننا جميعاً تحت قبضة هؤلاء المجرمين الآن..

وأن أبقى مع والده ومعه بالتحديد.. أفضل بكثير من البقاء معهم.. فما زلتُ أملك بعض الأمل في نجاتي من كل هذا الخراب.. والعودة إلى وطني.. إلى

عائلتي..

نظرَ يحيى إليّ مستغرباً.. ثم قالَ مبتسماً:

- لأول مرة أشاهدكِ تتصرفين وتقررين من تلقاء نفسكِ بذكاء.

ملاحظة لم أنتبه إليها فعلاً..

كيفَ لي أن أتصرف من تلقاء نفسي، وأقرر قراراً مفصلياً كهذا؟

يبدو أنّ تراكم التجارب المريرة.. هو ما صنعَ مني إنسانة مختلفة قليلاً عن السابق.. ومن دون أن أشعر بذلك..

الأطفال يقولون الحقيقة.. الكبار وحدهم من يكذبون..

وإن كذبَ الأطفال.. فالدافع الوحيد الذي يجبرهم على ذلك..

هو النجاة من جحيم بطش الكبار!

بقينا محتجزين وسط حراسة مشددة.. لمدة شهرين كاملين!

أخبرني يحيى أنّهم يخشون خسارتهم لوالده..

فهم يبحثون عن استغلاله؛ نكاية بأطراف أخرى يجمعهم معها العداء.. لا يهمني كل هذا.. ما يهمني هو انتهاء هذا الكابوس..

للأسف في تلك الفترة.. تمّ إجبارنا أنا ويحيى.. على غسل ملابسهم!

كانوا يُخرجوننا كل ليلة قبل أن ننام.. كي نخدمهم!

كنّا نغسل كل ملابسهم يومياً.. ونعلقها على الحبل حتى تجف..

ومن ثم نرتّبها لهم.. لقد كنا نخدمهم مجبرين..

استغلوا وجودنا وعجزنا على الرفض.. ولكنَّ المتعب في الأمر..

الحمّى التي مازالت تلازمني بسبب الجرح..

بدأتُ أشعر ببعض الآلام الداخلية التي يبدو أنّها حتماً بسبب العملية.. أنا لستُ على ما يرام!

لاحظ ذلك أحد الرجال، بعدما أدخل علينا الطعام في ذلك اليوم..

وأبلغ قائدهم.. والذي بدوره حضر لمعرفة حالتي..

قرّر حينها أن يسمح لي بوضع الكمادات والاستعانة بالمرهم..

ليس ذلك فحسب.. بل أخذ العلاج أيضاً!

ما هذا العطف الذي نزلَ على قلبه فجأة؟

أصبحتُ أتوجس من رحمتهم خيفةً ، مستحيل أن تكون رحمة صافية.. لا بد أن يكون خلفها مآرب أخرى!!

كان يحيى هو من يضع لي الكمادات على الرغم من صعوبة ذلك عليه بسبب حالة يديه.. إنه مبتور الكفّين ويصرّ على العناية بي..

جميلة تلك الروح التي لا تنضب من العطاء..

مهما أخذوا منها.. أو حاولوا تدنيسها!

كنتُ أضع المرهم بنفسي على جرح العملية، الذي لا أعلم ماذا يخبئ خلفه من أسرار..

مرت الأيام تلو الأيام حتى شعرت بتحسن جزئي مع الوقت..

كنتُ سعيدة بهذا التحسن الطفيف.. ولكن حدث أمر ما!

لم أستجمع قواي بعد.. ولم يترك لي هؤلاء الأوباش مجالاً..

في صباح ذلك اليوم المشؤوم..

فتحَ أحدهم الباب بقوة أرعبتنا، وجعلتنا نستيقظ بفزع مفرط..

طلبَ منا الخروج فوراً..

وفعلاً وضعتُ الشال على رأسي، وتحاملت على نفسي..

وتبعتُ يحيى المسكين إلى الخارج..

كانوا جميعهم في انتظارنا، ومعهم والد يحيى يقف مبتهجاً!!

يبدو أنّه قد نال ثقتهم مجدداً..

هذا المشهد أحبطنا جداً.. فالابتسامة التي كانت على وجهه

ابتسامة شر أعرفُها جيداً.. ابتسامة تتبعها الكثير

من المصائب!

تحدّث المجرم أبو معاوية بصوت حاد وصارم جداً..

حيث كان يوجه حديثه إلى والد يحيى مهدداً:

- فرصتكَ الأخيرة للنجاة، ولإنهاء كل الشبهات من حولك.

- سوف ترى اليوم ما يسرّك.. ولكن من سوف يرافقنا؟

- رجلان من رجالي.. أحدهم سوف يقود السيارة بنفسه.

لم يعترض والد يحيى أبداً.. بل كان واثقاً من نفسه..

فطلبَ مني أن أضع النقاب.. وأن أتبعه وابنه برفقة الرجلين..

ركبنا السيارة.. كنتُ أجلس بجانب النافذة.. ويحيى في الوسط ومن ثمّ أحد الرجلين.. والآخر يقود السيارة وبجانبه والد يحيى..

انطلقنا ولا نعلم عن الأمر أي شيء.. إلى المجهول

الملعون كالعادة.. كان يحيى قلقلاً جداً.. وهذا القلق انتقلَ إليّ بسببه..

استغرقَ الطريق قرابة الساعتين..

وصلنا إلى مكان أشبه بالسوق.. لا أعلم ما اسمهُ؟ وأين يقع؟..

كان مكاناً بسيطاً.. غير مزدحم إلى ذلك الحد..

توقفت السيارة وبدؤوا في النقاش.. كانوا يراجعون خطة!

الخبر غير السار والذي حلّ عليّ كالصاعقة..

وجعلَ يحيى يحاول التدخل متذرّعاً بسوء حالتي الصحية..

أنني سوف أكون البطلة الوحيدة في تنفيذ هذه الخطة!

لكنّه فشل كالعادة.. حتى إنّهُ كاد يُضرب بسبب اعتراضه..

أشارَ والد يحيى بيده نحو مطعم شعبي بسيط المظهر..

يحتوي على طاولات قليلة، يجلس على أغلبها سياح أجانب..

تحدّث أحدهم بكل لؤم:

- يا للفرحة!.. الفريق الأجنبي السياحي الكوري يحضر للاستراحة كما وصلتنا المعلومات تماماً.

نزلَ والد يحيى من السيارة بحذر..

ثم فتحَ الباب من ناحيتي، وطلب مني النزول فوراً..

ثم طلبَ مني تعديل نقابي جيداً..

توجّه نحو مؤخرة السيارة، وأخرج حقيبة أطفال مدرسية..

رُسمت عليها رسوم كرتونية جميلة جداً كلها بهجة..

أعجبتني، وجعلتني أستذكر تلك الأيام الدراسية..

صديقاتي.. واجباتي.. مستلزماتي.. لقد خطفتْ قلبي كطفلة..

ساعدني على ارتدائها.. هنا تدخّل يحيى مرة أخرى..

وتساءل عما تحملهُ هذه الحقيبة؟

انفجرَ غضب والده.. فهجم عليه غارساً قدمه اليمنى في بطنه، وبدأ يدهسه أكثر من مرة طالباً منه أن يخرس!

قبل أن يتدخل أحد الرجلين غاضباً.. وهو يطلب منه التحكم بأعصابه؛ حتى لا يتسبب في لفت الأنظار نحونا!

انخرطَ يحيى في البكاء رغماً عنه بسبب الألم الذي أصابه..

كان يعاني وهو يحاول بصعوبة أن يلتقط بعضاً من أنفاسه!

توجهتُ نحوه كي أطمئن عليه، ولكنّ والده سحبني من يدي وطلبَ مني التركيز فيما سيقول..

حزنتُ كثيراً وتألمتُ على يحيى.. كان بالي مشغولاً عليه..

بدأ والدهُ الوغد بإلقاء التعليمات عليّ..

وسط نظرات العجز من قبل يحيى، الذي كان يخشى شيئاً!

أعطاني بعض النقود.. ثم طلبَ مني أن أتقدم نحو المطعم..

وأن أجلس بداخله، تحديداً بالقرب من السياح الكوريين!

وأن أطلب أيّة وجبة؛ حتى يسمحوا لي على الأقل بالانتظار..

وأكّد على نقطة هامة.. حين قال:

- وإن لم يسمحوا لكِ بالجلوس.. أعطهم النقود كي يحضروا طعامكِ، ثم اطلبي منهم استخدام دورة المياه، وضعي الحقيبة في داخلها، وغادري مباشرة نحونا.

هذا الطلب الأخير جعلني ازداد توتراً وخوفاً..

فسألتهُ بعفوية بعدما وجدتُ نفسي أندمج مع حديثه:

- لكنّهم سوف يلاحظون خروجي، وأنا لم أستلم الطلب؟

- لا يهمّ.. مشاهدتنا لكِ أثناء خروجكِ.. يعطينا إشارة واضحة إلى أنكِ قد تركتِ الحقيبة.. وهذا هو ما يهمّ.

نظرات يحيى جعلتني أحاول أن أتذرّع بالألم..

ولكنَّ أباه كان صارماً، ويهدد كعادته بأن يبرحني ضرباً..

وعندما شاهدَ توتري، بدا لي وكأنّه خشي من فشلي في تنفيذ

ما خطط له.. وبالتالي يعني فشله أمام أبي معاوية ورجاله..

وهذا يعني ضياع فرصتهُ الأخيرة بالنجاة!

لذلك.. وجدتهُ قد بدأ يتلطف بالحديث، وهو يقول متوتراً:

- كوني مطيعة.. لن تبقي طويلاً.. سوف يتبعكِ أحد الرجلين حتى يعيدكِ إلينا، كي نغادر بعدها مباشرة.

لا أعلم هل يكذب أم لا؟ ولم أكن أملك سوى تصديقه..

رغبةً في التخلص من هذه المهمة الغريبة، والتي من المؤكد أنّها لا تحمل سوى الشر..

وفعلاً.. توجهتُ نحو المطعم المقصود.. مشيت

بهدوء كي لا أتعثر، فقد كنتُ أعاني من صعوبة التأقلم مع النقاب كطفلة.. خصوصاً أنّ مسافة الوصول إلى الموقع كانت طويلة بعض الشيء..

عندما اقتربتُ.. تسلل إلى مسامعي شيء ما!

هناك صوت شدّ أحاسيسي بشكل مألوف لم أسمعهُ منذ مدة..

كان صوت فرح.. صوت حياة.. التفتُّ إلى يساري نحوه..

كان عازف عود!

خمسيني كما أعتقد.. ملابسه رثة.. يلفّ حول رقبته وشاحاً قديماً جداً كما بدا لي.. رُسم على خديه الكثير من الشروخ..

الحقيقة لستُ عاشقة للموسيقى.. ولكنني كأيّة طفلة عادية..

يجذبها صوت السعادة.. ويثيرها أيّ محفز للتمايل رقصاً..

على الرغم من حالة العازف التي تشعركَ أنّه يخبئ أحزان العالم كله خلف صدره.. إلا أنّه كان يبتسم لكل

مَن يمر من أمامه.. فرشَ أمامه رداءً أبيض متسخاً طلباً للمال..

وكان قليلون جداً من يتجاوبون معه، ويضعون له النقود..

وخصوصاً بعض السياح الأجانب الذين كان شكلهم جميلاً..

هناك الكثير من الأمور الجميلة حولنا..

ولكنّ الألم الذي سمحنا له بالاستحواذ على تفاصيل حياتنا..

هو ما يحجب عنّا الانتباه إليها!

تصرفتُ من تلقاء نفسي.. اقتطعتُ جزءاً من النقود التي سلّمها لي والد يحيى وقدّمتها له.. استقبلها بسعادة وبابتسامة

أعلمُ أن ذلك الحقير يراقبني.. لكن لم أتردد في فعل ذلك..

لأول مرة أُقدمُ على فعل خير منذ فترة طويلة جداً..

فهذا العزف صنعَ بهجتي.. جعلني أعيش بعض

الانتشاء..

كنتُ أتمنى لو أبقى معه مستمعة وقتاً أطول..

لكن لا مجال، ولا وقت لديّ.. فتوجهتُ إلى المطعم فوراً..

وقبل دخولي.. نظرَ إليّ أحد العاملين وسألني عمّا أريد..

وكأنني في نظره مجرد متسولة.. يبدو أنّ هيئتي كانت سيئة..

أخبرتهُ أنني أريد الطعام والجلوس في الداخل..

لاحظ صعوبة النطق لديّ، وعدم وضوح مخارج حروفي..

فأخبرني أنّ بقاء الصغيرات في الداخل ممنوع..

يبدو أنّ والد يحيى قد جهّز فعلاً الحلول لجميع الاحتمالات..

مجرم حقاً.. فقررتُ حينها تنفيذ السيناريو الثاني..

طلبتُ طعاماً كي أخذهُ معي للخارج، وأعطيتهُ النقود..

وأعادَ لي الباقي.. ثم طلبتُ منه أن أستخدم الحمام فقط..

رفضَ في البداية.. لكنّ تكرار طلبي جعلهُ يتراجع..

خصوصاً أنني لستُ متسولة.. بل زبونة تملك نقوداً وتنتظر استلام طلبها..

فوافقَ متعاطفاً، طالباً مني الإسراع في قضاء حاجتي..

وبالفعل.. توجهتُ نحو الحمام بعدما دلّني إليه..

والذي كان في مؤخرة المطعم، بالقرب من باب آخر مفتوح نحو السوق الداخلي الشعبي.. وقبل أن أصل..

سحبَ أحدهم يدي بشكل قوي وسريع!

ووضع يدهُ على فمي!!

وتوسّل طالباً مني الهدوء، حتى لا ألفت الأنظار نحوه..

كادت أن تتوقف نبضات قلبي حينها من الخوف!

ثم أزاحَ اللثام عن وجهه.. نظرتُ إليه غير مصدقة..

لقد كان العمّ فاضل!!

شعرتُ بدوار خفيف بسبب هذا الموقف غير المتوقع.. لكنّه لم يترك لي أيّ مجال للحديث.. كنتُ في ذهول تام!

أجبرني على خلع الحقيبة، ثم سلّمها إلى شخص آخر كان يقف بالقرب منه.. وقبل أن يتركني ويغادر معهُ..

هزّني العم فاضل من كتفيّ، وهو يردد:

- أخبريهم أنَّ أحدهم سرق الحقيبة.. عودي إليهم الآن.

تلاشى جزء من صدمتي، وسألته وأنا مرعوبة جداً:

- ما الذي يحدث؟ أنا أرتعب!

- تأكدي أنني لستُ سيئاً وسوف أعود إليكِ.. لا تخبريهم عن تفاصيل ما حدثَ بيننا مهما حدث.. أرجوكِ إيمان.

أمرَ الشخص الذي معه بسرعة بالخروج من السوق..

وبينما حاولَ الذهاب بعده مسرعاً.. أمسكتُ بيده وأنا أصرخ:

- إن كنتَ لستَ سيئاً، أعدني إلى بلادي.

أجابني قاطعاً الكلام، وهو مرتبك وعلى عجلة من أمره:

- سأسعى أن أستعيد جوازكِ، كي تعودي إلى أفغانستان.

صرختُ في وجهه بأعلى صوتي، وسط جموع المارة والدموع تكاد تنهمر من عينيَّ وأنا أقول:

- لكنّني سبقَ وأن أخبرتكم من قبل أنني سعووودية.

قلتُها وقلبي يحترق، ولساني يتألم..

لعلّ وعسى يصلهُ صدق حديثي الذي لا يريدُ أحد هنا أن يتعامل معه بجدية..

هنا، نظرَ إلى عينيّ قليلاً.. متعجباً من إصراري، ومحتاراً في أمري.. لكن لا وقت لإطالة الحيرة.. أو للفت الأنظار..

فوعدني حينها خيراً.. ثم غادرَ مهرولاً ليلحقَ

بصديقه..

ولينجحا في وأد مهمتي وإجبارها على الفشل(18)

حدثَ كل هذا الحوار المفاجئ في ظرف ثلاث دقائق تقريباً!

قررتُ أن أعود مسرعة إلى السيارة، كي لا يشك فيَّ

والد يحيى.. وبمجرد خروجي من المطعم..

شاهدني حتماً هو ومَن ينتظرني معه.. ومن دون تمهيد..

اخترقَ رأسي صوت انفجار قوي جداً جعلني أسقط أرضاً!

وحلّ أمامي سوادٌ حجبَ عني النظر تماماً!

وحجبَ عني كل شعور!

لم أعلم شيئاً عن أيّة تفاصيل بعد ذلك!!

"معلومات هامّة"

ساهمت الطفلة إيمان في تفاصيلها دون أن تعلم

عن الأمر شيئاً أبداً.. حتى هذه اللحظة!

"" تمَّ إفشال العمل الإرهابي الجبان.. حيث نجا الفريق السياحي الكوري، ولم ينجح التفجير سوى جزئياً.. مما تسبّب بالقليل من القتلى للأسف.. بمنْ فيهم الشخص الذي حملَ الحقيبة.. حيث انفجرتْ فيه، قبل أن يبعدها بشكل كامل.

"" أصيبَ العم فاضل إصابة بليغة..

والذي اتّضح فيما بعد أنّه أحد رجال المباحث في اليمن!

فمنذ أن وصلت "إيمان" إلى منزلهِ مصادفة برفقة ابن أخيه قاسم.. وتحديداً بعد واقعة احتراق منزله الشنيعة ووفاة زوجته.. وردته معلومات خطيرة بحكم عمله وتخصّصه في اختراقه للجماعات المتطرفة، وذلك تحت غطاء المتاجرة بالممنوعات.. وصلتهُ معلومات تتحدث عن والد يحيى!

والذي واجهوا سابقاً صعوبة بالغة في العثور عليه، أو حتى في التعرف على شكله.. وبعد معرفتهم أنّ الطفلة التي يبحث عنها هي الطفلة إيمان.. قرروا الوصول إليه من خلالها.. فابتلعَ الطعم.. ومنذ لحظة استلامه إيمان أصبح مراقباً.. وهذا هو السر الخفي

الذي كان خلف إفشال معظم مهماته الأخيرة.

""هاجمَ رجال الأمن والد يحيى قبل فراره هو والرجلان من موقع التفجير.. وبعد مطاردة طويلة، وتبادل لإطلاق النار سقط رجليّ أمن.. ولكن حدثَ الأهم.. تمَّ قتل الثلاثة المجرمين.. بمَن فيهم المجرم والد يحيى!

""في تلك الأثناء.. تمّت مباغتة الإرهابي أبي معاوية هو ورجاله.. بعد محاصرة المبنى الذي كانوا يختبئون داخله.. ووقعتْ معارك اشتباك قوية، وتبادل لإطلاق النار.. وبعد سقوط معظم رجاله.. فجَّر أبو معاوية نفسه بعد ترديدهِ للتكبير مراراً.. ولم يتسبّب بأيّة أضرار في الحيّ.. سوى أضرار مادية في البناية الفارغة أصلاً..

""بالتأكيد جميعكم تسألون عن يحيى.. من أهم الأمور الجيدة التي حدثتْ حينها.. هو هروب "يحيى" من السيارة، قبل فرارها من الموقع إثرَ هجوم رجال الأمن المباغت.. وتوارى عن الأنظار حتى تأكّد بعد يومين من حقيقة الأخبار السابقة.. فقرّر حينها الخروج.. وبعد بحث مستمر ومتعب توّصلَ إلى إيمان.. والتي وجدها ترقد في إحدى المستشفيات

حيث تضررت كثيراً من شظايا التفجير المتناثرة بقوة..
فلم ينقطع منذ ذلك الوقت عن زيارتها على الرغم من
الصعوبات التي يعانيها..

""بعد مرور أسبوعين.. قرّر يحيى أن يتواصل مع
المحامي الذي سبقَ وأعطته إيمان رقمهُ الخاص..
وأخبرهُ عن تفاصيل قصتها التي كان وحده شاهداً
عليها.. ونقلها المحامي كاملة كما سمعها من يحيى
تماماً.. دونَ أن يعرف اسمها حتى اليوم للأسف..

""اضطر يحيى أن يعيش عند والدته.. وبعد بحث
طويل ومرهق بسبب تشرده في الشوارع.. توصل إلى
عنوانها.. واكمل حياته محمّلاً بأبشع الذكريات!

""عانت الطفلة إيمان من الجروح البليغة.. ومن
جرحها السابق.. وبقيتْ في المستشفى قرابة الأسبوع
وهي غائبة عن الوعي..

توفّيتْ ودُفنتْ معها حقيقة هويتها!

2007/7/24

" النهـــايـة "

(1) زواج القاصرات من أكثر الأمور الاجتماعية الخطيرة في المجتمعات الإسلامية والعربية.. "سبقَت الإشارة إلى ذلك في أحد الهوامش في الجزء الأول صفحة 189"، فعلى الرغم من التحذيرات والمواثيق الدولية إلا أنّ هناك الكثير من الدول التي مازالت تعاني من هذه الظاهرة، بسبب قناعات دينية أو أعراف قبليّة.. ولكن يجب التنويه أنّه في الوقت الحالي قد تغيرت أمور كثيرة عن الزمن السابق.. حيث ظهرت قوانين صارمة في الكثير من البلدان ترفض هذا النوع من الزيجات.. ونتمنى أن يكون القادم أفضل.. في ظل ارتفاع الوعي للجيل الجديد في المنطقة

(2) لطالما انتشرت الكثير من القصص المأساوية التي تقع بعد زواج القاصرات من أشخاص أكبر منهم عمراً في المنطقة العربية.. وبما أنّ أحداث الرواية تدور في اليمن.. فإليكم هذا الخبر المؤلم جداً الذي حدث هناك، والذي تصدّر الصحف:

في أبريل (نيسان) 2010 توفيت الطفلة (إ. ع) بعمر 13 سنة بسبب اغتصابها من قبل زوجها بعد خمسة أيام من تزويجها! كما توفيت فتاة في الثانية عشرة في سبتمبر (أيلول) من السنة نفسها أثناء إنجابها طفلاً توفيَ بدوره. وغالباً ما تخشى الفتيات من مواجهة قرار العائلة أو الحديث عما تتعرض له من تجاوزات في مجتمع يعتبر أنّ تحدي إرادة الأهل في موضوع الزواج يجلب العار. إلا أنّ محكمة يمنية منحت في 2008 الطفلة (ن. م. ع) التي كانت في الثامنة من عمرها الطلاق من زوجها الذي يكبرها بعشرين سنة والذي أجبرها والدها على الزواج منه، وذلك في

قضية هزت المجتمع اليمني.

ملاحظة: تمّ اختصار الأسماء من الخبر باستخدام الحروف.. حفاظاً على خصوصية الأطفال الذين لا ذنبَ لهم.. على الرغم من نشرها كاملة بالخبر.

المصدر: صحيفة الشرق الأوسط - الاثنين - 9 ذو الحجة 1434هـ - 14 أكتوبر 2013

(3) مأرب: هي إحدى محافظات الجمهورية اليمنية، تقع إلى الشمال الشرقي من العاصمة صنعاء، وتبعد عنها بحدود (173) كيلو متراً، ويشكل سكان المحافظة ما نسبته (1.2%) من إجمالي سكان الجمهورية، وعدد مديرياتها (14) مديرية، ومدينة مأرب هي مركز المحافظة.

(4) شخصية إرهابية تمَّ ذكرها في الجزء الأول "صفحة 149".. حيث تحوّل إلى العمل في التهريب وبيع الأعضاء بدلَ الأعمال الإرهابية المباشرة

(5) جرائم مثل هذا النوع لا تنفذ من أشخاص عاديين لا خلفية علمية لديهم..

حيث وردت هذه النتيجة الهامة في أحد تقارير الأمم المتحدة.. تقول الجزئية:

يمكن التمييز بين ارتكاب هذه الجريمة وغيرها من أشكال الاتجار بالأشخاص من حيث القطاعات التي يأتي منها تجار الأعضاء البشرية وسماسرتها؛ فقد يكون هناك أطباء

وغيرهم من ممارسي مهنة الرعاية الصحية، وسائقو سيارات إسعاف ضالعين في الاتجار بالأعضاء، إضافة إلى المشاركين في شبكات إجرامية أخرى تمارس هذا النوع من الاتجار.. وتستلزم معاملات الاستئصال والزرع (الازدراع)، نظرا لما تتّسم به من طابع معقّد، طائفة من المهارات من مختلف قطاعات المجتمع ومنها، على سبيل المثال لا الحصر، القطاعات التالية: • المديرون الطبيون لوحدات ازدراع الأعضاء البشرية • موظفو المستشفيات والموظفون الطبيون • التقنيون في مختبرات الدم والأنسجة • الأفرقة الجراحية الثنائية التي تعمل ترادفياً • الأخصائيون في طب الكلى • ممرّضو وممرّضات الفترة اللاحقة للعملية الجراحية • وكلاء السفر ومنظمو الجولات السياحية لتنظيم شؤون السفر والجوازات والتأشيرات • وكلاء التأمين الطبي • متصيّدو الأعضاء البشرية (لتجنيد "متبرّعين" محلياً ودولياً من الفئات السكانية المستضعفة) • المنظمات الدينية والجمعيات الخيرية التي تلجأ أحياناً إلى سماسرة الأعضاء البشرية.

وقد تؤدّي هذه الجهات الفاعلة، سواء أكانت أشخاصاً طبيعيين أو اعتباريين، أدواراً مختلفة في عملية الاتجار، تشمل المشاركة في ارتكاب جريمة الاتجار بالأشخاص بغرض نزع أعضائهم كما تشمل تنظيم وتوجيه أشخاص آخرين لارتكابها.

المصدر: مؤتمر الأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظَّمة عبر الوطنية)

(6) محافظة عمران: إحدى محافظات اليمن.. تقع شمال

العاصمة صنعاء وتبعد عنها بمسافة 50 كم تقريباً

(7) هو تنظيم إرهابي متطرّف خطير جداً.. متعدد الجنسيات.. يدعون فيه إلى الجهاد الدولي.. ينشطون حتى اليوم وبكثافة ملموسة في اليمن.. هاجمت القاعدة أهدافًا مدنية وعسكرية في مختلف الدول الإسلامية والعالم ، أبرزها هجمات 11 سبتمبر 2001 في أمريكا)

(8) مديرية منبه :إحدى مديريات محافظة "صعدة" في اليمن.. تقع في الجزء الغربي من المحافظة، وهي إحدى المديريات الحدودية مع المملكة العربية السعودية، وتتصل من جهة الشمال الشرقي بمديرية قطابر، وتتصل بشريط حدودي مع المملكة العربية السعودية يمتد على طول الجهة الغربية.

(9) الحوثيون حركة سياسية دينية متطرفة ومسلحة.. تأسست في عام 1992 وأصبحت تقدم نفسها تحت مسمى "أنصار الله"، سبب تسميتهم بالحوثيين هو نسبة إلى مؤسسهم حسين الحوثي، ووالده الذي عُرف بالمرشد الروحي للحركة المتطرفة.. بدرالدين الحوثي.. يتمركزون في صعدة .

(10) العريكة هي من أشهر المأكولات التراثية في جنوب السعودية، تنتشر في منطقة عسير.. ووصلتْ إلى الكثير من المناطق، وحتى بعض الدول.. يتم تحضيرها من الدقيق الأسمر والماء والملح.. ويضاف إليها السمن والعسل والتمر.

(11) وقعت قصة مشابهة للقصة التي ذكرها قاسم.. حيث تمّ نشرها رسمياً.. في صحيفة الرياض.. يقول الخبر المؤلم جداً:

عثرت شرطة المدينة المنورة أمس على الطفلة الأفغانية (راضية) المختطفة قبل أربع سنوات، والتي حلّ العثور عليها لغز جثتي الطفلين اللذين تمّ العثور عليهما أمام مسجد (أبو سرداح) الأول من أمس.

وبحسب الناطق الأمني العقيد محسن الردادي، فإنه أثناء مرور أحد ضباط منسوبي مركز شرطة العقيق، شاهدَ في الشارع المقابل أمام ثلاجة الزارع امرأتين وأطفالاً. وللاشتباه بهم ونظراً لوجود خطة مسبقة لمركز الشرطة على خلفية حادث العثور على طفلين في حقيبة متوفيين، كان الإحساس الأمني بأنّ الجاني سوف يقوم بتسليم نفسه إلى الترحيل، وبالبحث عن كل من اشتبهَ به، تمّ إحضار المرأتين والأطفال= = الثلاثة إلى القسم، حيث لوحظ اختلاف جنسية المرأتين فإحداهما من جنسية إفريقية والأخرى عربية وتتحدث اللغة العربية. وبمشاهدة ملامح الفتاة التي معهما وبالدقة والملاحظة في التحقيق؛ وُجد أنّ ملامح الفتاة التي تبلغ من العمر 11 سنة وترافقهما آسيوية، وبالتحقيق معهما اعترفتا بأنّ الفتاة اسمها راضية من الجنسية الأفغانية، والمختطفة قبل أربع سنوات تقريباً من ساحة الحرم، وتمّت إحالتهما إلى شرطة المنطقة المركزية وعرض الفتاة على ذويها والتأكد من معرفتها.

وأضاف الناطق: وقد اتّضح من التحقيق أنّ من قام بخطف الفتاة راضية هي امرأة من الجنسية العربية، وموقوفة بإدارة الترحيل

على إثر قضية، حيث تمّ احتجاز الطفلة مع أفراد أسرة شقيقها طيلة تلك السنوات. وبالتحقيق مع المرأتين اللتين تم القبض عليهما، أفادتا أنّهما زوجتان لشقيق المرأة التي بالترحيل، وأنّ الفتاة راضية تمّ اختطافها من قبل أخت زوجهما. وبمناقشتهما من قبل مركز شرطة المنطقة المركزية وضابط التحريات بالبحث الجنائي عن الطفلين اللذين عثرَ على جثمانهما داخل الحقيبة، أفادت إحدى زوجات المتهم بأنّ الطفلين أحدهما يبلغ من العمر ثلاث سنوات، والآخر سنة ونصف قد توفيا قبل ثلاث سنوات حيث أصيبا بمرض التشوهات في القفص الصدري، وأورام في المخ، وتمّ وضعهما بعد وفاتهما مباشرة داخل حقيبة من قبل والدهما، وتركهما على سطح المنزل الذي يسكنون به طيلة تلك الفترة، لكونهما مقيمين بطريقة غير نظامية.

وأضافَ العقيد محسن: ولرغبة زوجهما بسفرهما عن طريق الترحيل ومعهما الفتاة راضية الأفغانية، وخشية من اكتشاف أمرهم، قام والدهما بأخذ الحقيبة وفيها الطفلان المتوفيان، ووضعهما جوار المسجد للتخلص من بقايا رفاتهما، وقد اتفقَ مع زوجتيه على أن يتم القبض عليهنّ في الشارع من قبل الجهات المعنية ليتم ترحيلهما على أن يلحق بهما بعد إبلاغه من قبلهما بالترحيل، وبالتحري والبحث تمّ القبض على زوج المرأتين في وقت قياسي بعدما تمّ تحديد مواقعهم بناء على المعلومات المتوفرة من قبل شعبة التحريات والبحث الجنائي، وذلك داخل منزله ومعه ابنه البالغ من العمر 10 سنوات، وابنتا أخته الموقوفتان بالترحيل البالغتان من العمر 10 سنوات والأخرى 11 سنة.

هذا وقد سلمت الجهات الأمنية الطفلة المختطفة راضية إلى

ذويها بعد استكمال الإجراءات المتعلقة بها، كما أحالت النساء وأطفالهنّ إلى سجن النساء. وتمّ تحويل كامل أوراق القضية إلى هيئة التحقيق والادعاء العام لإكمال اللازم بحكم الاختصاص.

(المصدر: صحيفة الرياض - الأربعاء 10 محرم 1430هـ - 7 يناير2009م - العدد 14807)

(12) شخصية إجرامية رئيسية في الجزء الأول.. واجهَ نهاية مثيرة جداً والجميع اعتقدَ أنّ دوره قد انتهى عند ذلك الحد.. ولكنّه عاد مرة أخرى دون سابق إنذار.. يمكنكَ العودة لمعرفة دوره المرعب في الجزء الأول من رواية الطفلة إيمان.

(13) للأسف في كثير من الأحيان يتم استغلال معاناة المخطوفين وعائلاتهم أسوأ استغلال بحثاً عن أطماع شخصية لا تمت إلى الإنسانية بأيّة صلة.. حدثَ ذلك مع إحدى العائلات السعودية التي فقدت ابنها في الحرم المكي بعد أن كان في حضن أخته.. حيث تمّ خطفه من قبل امرأة استغلت براءة الطفلة، وطلبت منها أن تذهب لشرب الماء على أن تتولى هي الإمساك بالطفل ذي السبعة أشهر.. وعندما عادت بعد فراغها من الشرب.. لم تعثر على المرأة ولا على شقيقها الرضيع!

يقول الخبر المنشور كما ورد في هذا الجزء:

طريق الأمل في عودة فلذة الكبد الذي تبعتهُ أسرة "المخطوف" والذي بدأ من جوار بيت الله ووصلَ إلى قلب المغرب وجبال اليمن ومدن ومناطق سعودية مختلفة على مدار عقدين "أكثر من 20

عاماً منذ اختطافه" مضيا كان مفروشاً بأشواك احتيال القلوب الميتة، التي تجيد اقتناص الآم الناس واستثمار معاناتهم، وهو ما يرويه (والد المخطوف) بقوله «ذهبتُ بحثاً عن ابني إلى المغرب واليمن والى عدد من المدن السعودية التي أبلغني أشخاص أنهم يشتبهون بوجوده فيها»، مشيراً إلى أنه أنفقَ مئات الآلاف من الريالات في تلك الرحلات وغير آسف على ما أنفق.

ويروي والد الطفل إحدى قصص الاحتيال التي تعرّض إليها بقوله «أرسلَ لي أحد الأشخاص في اليمن رسالة يقول فيها أنّ ابني موجود لديه، وأنه في أتم الصحة والعافية، وأنه متأكد أنه ابني، وبعد أن طلبتُ منه ارسال البصمات الخاصة به، لم تمض أيام حتى أرسلها لي. وعندما أبلغته أنني فقدتها وأرغب في إرسالها مرة اخرى، وجدتها مختلفة عن الأولى التي أرسلها، وعلمتُ أنهُ أرادَ سرقتي»

ورغم كل المعاناة والألم والحيرة يؤكد "والد الطفل" أنّ رحلة البحث عن ابنه لن تتوقف ويقول «سأبحث عنه حتى آخر رمق في حياتي، ولن أفقد الأمل في العثور عليه مهما حدث، ومهما واجهتُ من مصاعب، وأملي في الله رب العالمين قبل كل شيء»

"ملاحظة: تمّ حذف اسم "والد المخطوف" واختصار الخبر.. احتراماً لعائلة الطفل ولاحتمال عدم رغبتهم في نشر ذلك في الرواية.. ونكتفي بمصدر الخبر لمن أراد الاطلاع أكثر"

المصدر: جريدة الشرق الأوسط - الاربعاء 28 مايو 2008 العدد (10774

(14) تنشط تجارة الأعضاء لدى الجماعات المتطرفة المسلحة.. سواء تجاه الكبار أو الاطفال بحثاً عن مصادر دخل تمكنهم من الاستمرارية.. سابقاً في عام 2008 أو حتى مؤخراً.. يقول الخبر الذي نشره.. موقع "إندبندنت عربية" :

ذكرت المنظمة اليمنية لمكافحة الاتجار بالبشر (مقرها في فيينا) أنّ قيادات نافذة في جماعة الحوثي في صنعاء متورطة في "سرقة أعضاء بشرية من جرحى الحوثيين في اليمن"، وقالت المنظمة غير الحكومية في بيان صادر عنها إنها تابعت "بقلق بالغ الممارسات غير الإنسانية والانتهاكات الجسيمة التي تطال الأبرياء في صنعاء، وعدد من مناطق سلطات الأمر الواقع"، في إشارة إلى سلطة الحوثيين في صنعاء.

وأضاف الخبر:

قال البيان إنّ "المنظمة تلقت معلومات خطيرة وصادمة عن قيام جماعات منظمة في سلطات الأمر الواقع التابعة لجماعة الحوثيين بعمليات سرقة أعضاء بشرية وأنسجة من جرحى الجماعة".

وأضاف أيضاً:

وفي هذا السياق قال نبيل عبدالحفيظ ماجد وكيل وزارة حقوق الإنسان في حكومة الرئيس عبدربه منصور هادي المعترف بها دولياً إن "قيادات حوثية على علاقة بعصابات متاجرة بالأعضاء البشرية، وإن الحوثيين يعدون ذلك نوعاً من مصادر التمويل".

وأضاف المسؤول اليمني في تصريحات لـ "إندبندنت عربية" "الحوثيون قاموا قبل ذلك باحتجاز عشرات النساء في سجون

سرية، بعد أن اختطفوهن من المقاهي والمطاعم والمتنزهات العامة، وبدؤوا يبتزون أسر هؤلاء النساء لدفع ملايين الريالات، وما لم يستجيبوا؛ فستفتح للسجينات ملفات بقضايا أخلاقية".

المصدر: "إندبندنت عربية" في 5 فبراير 2019.

(15) يتم القبض على بعض المتورطين في خطف الأطفال وتهريبهم والكثيرون منهم يفلتون من الوقوع في قبضة الشرطة للأسف.. ما حدثَ في هذه الرواية هو قصة من عشرات القصص المشابهة التي تحدث.. وضعتُ لكم هنا قصة مشابهة لا تُصدق تكشف لكم بعض ما يحدث للأطفال المستضعفين من أساليب متنوعة تستخدم في تهريبهم.. حيث يقول الخبر:

تمكنت الأجهزة الأمنية اليمنية من القبض على عصابة لتهريب الاطفال اليمنيين إلى المملكة أثناء محاولتهم تهريب عشرة أطفال تتراوح أعمارهم بين خمس سنوات واثنتي عشرة سنة.

وأشارَ موقع مارب برس الألكتروني إلى أنّ ضبط العصابة تمّ أثناء محاولتها استخراج شهادات صحية لغرض الحصول على تأشيرة عمل في المملكة لعدد من العمال، فساورت إدارة المستشفى شكوك بشأن أعمار المتقدمين للفحص الطبي لتكتشف وجود عشرة أطفال بين المتقدمين، تراوح أعمارهم بين 5 و 12 عاماً. وتمّ إبلاغ الجهات المختصة.

وأوضح الموقع أن أحد الاطفال كان يحمل عشر بطاقات بأسماء مختلفة، فيما يحمل بقية الاطفال بطاقات وجوازات سفر بأسماء

غير حقيقية، مشيراً إلى أن غالبية الأطفال المضبوطين، ينتمون إلى محافظة الحديدة الأكثر فقراً وازدحاماً بالسكان.

المصدر: واس "وكالة الأنباء السعودية" - 25 سبتمبر 2007.

(16) يكثر استهداف السياح الأجانب من قبل الجماعات الإرهابية المتطرفة المسلحة في اليمن وذلك لمحاولة إحراج الحكومة اليمنية أمام المجتمع الدولي، ومن ثم محاولة فرض المطالبات..

فمن ضمن الأخبار الأكثر انتشاراً.. هو خبر اختطاف سياح ألمانيين.. إليكم جزء من الخبر:

مازالَ الغموض يكتنف عملية اختطاف وقتل عدد من المختطفين الأجانب في منطقة صعدة بشمال اليمن.. أفادت تقارير إعلامية بالعثور على جثث عدد من الأجانب الذين تمّ إعلان خبر اختطفاهم يوم أمس الأحد (14 يونيو/ حزيران) بالقرب من منطقة صعدة شمال اليمن.

وتضاربت الأنباء عن عدد القتلى، ففي الوقت الذي نقلت فيه وكالة رويترز عن مصادر حكومية وأخرى قبلية في اليمن خبر العثور على جثث ثلاث ألمانيات، كنّ من ضمن الأجانب التسعة المُختطفين، أفادت وكالة فرنس بريس، نقلاً عن مصدر رسمي محلّي في محافظة صعدة، أنّه تم العثور على جثث سبعة من الأجانب المختطفين وطفلين على قيد الحياة.

وأورد المصدر نفسه أنّه تم العثور على الجثث السّبعة في محلّة شعب مدار بمنطقة نشور التي تبعد 12 كلم شرق مدينة صعدة

عاصمة محافظة صعدة، التي ينشط فيها متمرّدون من الزيديين الحوثيين. ومن جانبها أعلنت وزارة الداخلية اليمنية في وقت سابق من اليوم الاثنين مقتل ثلاث سيدات ألمانيات، كنّ فقدنَ شمالي العاصمة صنعاء يوم الجمعة الماضي. ولم يرد حتى الآن تأكيد يمني رسمي للتقارير التي تحدثت عن مقتل سبعة من مجموعة الأجانب المختطفين. واتهمت المتمردين الحوثيين بالوقوف وراء عملية الاختطاف.

المصدر: ش.ع / د.ب.أ / أ.ف.ب / رويترز – من موقع دويتشه فيله (DW) الألمانية

في 15 يونيو 2009.

(17) يمكنكم مراجعة الطريقة الخبيثة التي أوجدوا من خلالها جوازين باكستاني ومن ثم أفغاني للبطلة.. وذلك في الجزء الأول من الرواية .

(18) هناك العديد من العمليات الإرهابية التي تستهدف السياح.. ومن حسن الحظ أن بعضها يفشل.. حيث ظهر على السطح الكثير من التقارير الإعلامية.. لفت نظرنا أحدها والذي يشبه ما حدث في الرواية..

حيث يقول الخبر التالي:

أعلن مصدر أمني يمني أن انتحارياً فجّر نفسه الأربعاء بالقرب من سيارتين في صنعاء تقلان مواطنين كوريين جنوبيين، من دون أن يسفر الهجوم عن سقوط قتلى أو جرحى. وذكر المصدر

لوكالة فرانس برس أن الانتحاري "فجر نفسه أمام سيارتين تقلان كوريين جنوبيين ما أسفر عن تضرر السيارتين، ولكن دون سقوط ضحايا".

وأضافَ الخبر:

وكان انتحارياً قد فجر نفسه الشهر الحالي وسطَ مجموعة من السياح الكوريين الجنوبيين بالقرب من موقع شبام الأثري في جنوب شرق البلاد، ما أسفر عن مقتل أربعة كوريين جنوبيين ومرشدهم اليمني.

وكان مسؤول يمني قد قال إن تنظيم القاعدة يقف وراء الانفجار الانتحاري الأول الذي نفذه فتى في الثامنة عشرة من عمره ارتدى حزاماً ناسفاً وفجر نفسه في أفراد الفوج السياحي الكوري الجنوبي.

المصدر: BBC نقلاً عن وكالة فرانس برس "AFP" – 18 مارس 2009.


حُبًا للقراءة